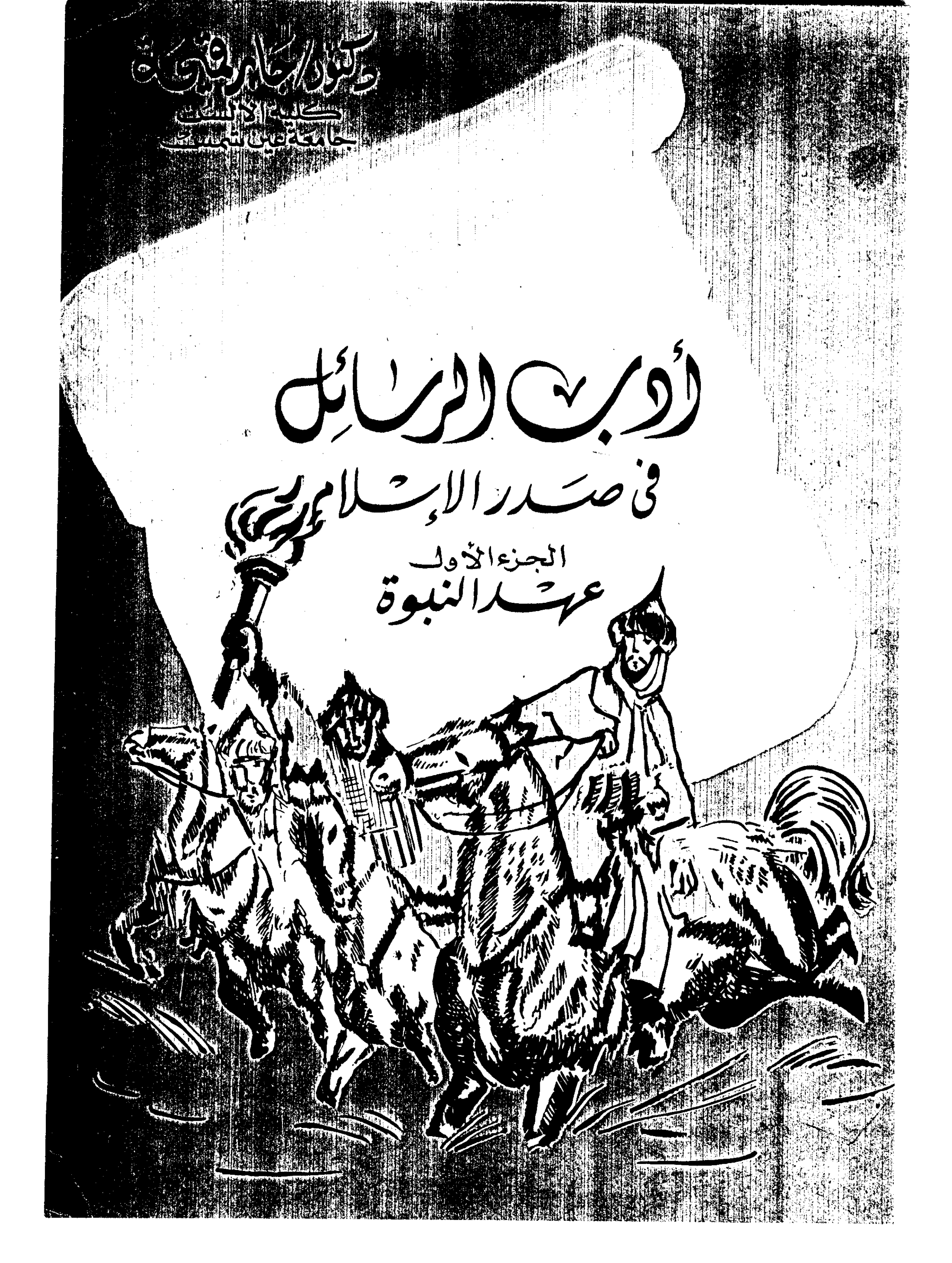


دكتور/ جابر قميحة
كلية الألسن
جامعة عين شمس
أدب الرسائل
في صدر الإسلام
الجزء الأول
عهد النبوة

أدب الرسائل

في صدر الإسلام

عهد النبوة

بقلم
الدكتور جابر قميحة
كلية الألسن - جامعة عين شمس

التوزيع
دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني - القاهرة
ص.ب ١٣٠ ت ٧٦٠٥٢٣ - ٧٥٠١٦٧

الطبعـة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

إهداء

إلى كـل ذى رســالة جليـلة ...

يعيــشُ لهــا ... لا بهــا ...

ويمضــى فى طـريقِ الحــق ...

باســتعلاءِ الإيمــانِ يمضــى ...

أقــوى من الترهيبِ ... يمضــى ..

أعـلى من الترغيبِ .. يمضــى ..

لأنه ذو رســالة ..

يعيــشُ لهــا ..

لا بهــا ..

إلى هــذا الإنســانِ الســماء ..

أهــدى هــذا الكتاب ؟



بسم الله الرحمن الرحيم

من قرابة عامين كان لقائى بالقارىء الكريم فى كتابى « **أدب الخلفاء الراشدين** » . وهأنذا التقى به فى كتاب جديد هو « **أدب الرسائل فى صدر الاسلام** » . وبين الكتابين كما هو واضح وشيجه قوية ، وصلة واضحة فى الموضوع والمضمون .

أما صلة النفس فقد بدات مع مسيرتى فى تاليف الكتاب .... كتاب « **أدب الخلفاء الراشدين** » وازدادت مع تقدمى فى كتابة فصول الكتاب ، وتحولت من رأى الى ايمان راسخ بفكرة . فقد كان أدب الخلفاء الراشدين قسمين :

القسم الأول ضم النصوص التى مثلت ألوانا اربعة هى :

(أ) الخطب والوصايا .

(ب) الكتب والعهود .

(جـ) الحكم والتوقيعات .

(د) الحوار والجدل .

وقد عرضت هذه النصوص مفسرة تفسيرا لغويا ميسرا ينحصر فى ذكر المناسبات والمعانى ، أما القسم الثانى من الكتاب فكان « تقييما » لهذه النصوص ، واستخلاصا لسمات الفكرية والفنية منها . وسميت هذا القسم تأدبا « وقفات ونظرات » .

وفى أثناء البحث بدا لى عدة أمور اهمها :

١ — أن هذه الألوان الأربعة التى نسبت للخلفاء الراشدين تمثل

ادبا حقيقيا متميزا ، وخصوصا فيما يتعلق بالقيم الانسانية والخلقية والنفسية والتنظيمية .

٢ — أن كل لون من هــذه الألوان يحتاج بحثا مستقلا ، فالمجـــال يتسع لبحث عن رسائل الخلفاء الراشدين ، وثان عن خطبهم .. وثالث عن جدلهم ومحاوراتهم ورابع عن حكمهم وأمثالهم . هــذا مع اعترافى بقــوة الصلة بين هــذه الألوان جميعا فهى كلها تنبع من معين واحــد ، وقـــد قــدمنا الدليل عمليا على قــوة الصلة ووحــدة المنبع بجمعها وتقييمها فى بحث واحــد وهــو « **أدب الخلفاء الراشدين** » .

ومع تقــدمى فى البحث السابق وقــد قلت فيه ان كتابى هــذا اكتفى بأدب الخلفاء الراشدين قولا وكتابة ، ولم اعرض لأدب غيرهم ممن زامنوهم ، واختلطوا بهم من القــادة والناس الا على سبيل الالمــاع والاشارة فى حالة الضرورة القصوى حتى يتكون للقارىء تصور كامل عن الطبيعة الأدبيـــة والنفسية لهؤلاء الخلفاء الذين غيروا وجه الأرض والتاريخ دون أن اقطع خط التتابع بايراد أدب غيرهم بين ما أوردته من أدبهم[1] .

أقول مع تقــدمى فى هــذا البحث حــدثتنى نفسى أن أتبعه ببحث عن « رسائل الخلفاء الراشدين » . واختمرت الفكرة فى ذهنى ولكن عهــدا من العهود وهــو عهد الخلفاء الأربعة لنصارى نجران ادار فى النفس خاطرا بل حــوارا ذاتيا .. ان هــذه العهود الأربعة كانت تتمة .. أو ان شئت فقل امتدادا لعهد سابق .. أو بتعبير أدق كانت مؤسسة على عهد سابق منحه النبى — صلى الله عليه وسلم — لنصارى نجران ، فجاءت هــذه « العهود » تاكيدا له من ناحية ، واستلهاما لروحه ونصوصه فى العــدل والانصاف من ناحية اخرى ... واذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نبدأ الموضوع من جــذوره أو من اساسه ويكون محور البحث « رسائل النبى والخلفــاء الراشدين » ؟ .. ولكن لمــاذا لا أخرج بالبحث من دائرة « أدب الشخصيات » الى « أدب العصر » فيما يتعلق بالرسائل ؟ . ورأيتنى أصل الى « القرار الحاسم » .. او « لحظة التنوير » فانفتح قلبى للخاطر الجــديد ، ورأيته

(١) انظر : جابر قميحة : أدب الخلفاء الراشدين ٢٧ .

يعانق هـذا العنوان « **أدب الرسـائل فى صـدر الاسلام** » . وقـد رجحه عندى عـدة أمور هى :

١ — اننى لن أحتاج الى تخصيص قسم من الكتاب لنصوص هـذه الوسائل ، فأغلبها معروض فى القسم الأول من كتابى « أدب الخلفـاء الراشدين » فالبحث اذن سيكون مقصورا على الدراسة الفنية ، ولن تساق فيه نصوص الا على سبيل التمثيل والاستشهاد .

٢ — أن هـذه الدراسة ستكون مغايره للدراسة السابقة ، حتى لو نظرنا الى ما كتبته عن الرسائل ، فما كتبته يمثل أدب « شخصيات » لا « أدب عصر » . كما انه يتسم بالايجاز اذ ان الرسائل لم تظفر من الحديث بأكثر مما نالت غيرها من الفنون النثرية كالخطب والوصايا والحكم . ومن ثم تجىء هـذه الدراسة لتتسع — فى سماحة — « لتفصيل » فى أدب الرسائل ضاقت عنه طبيعة البحث السابق .

٣ — ان هـذا المسـلك أو هـذا الاختيار يتفـق ويساير الطبيعة الوجودية أو الايجادية لهـذا الفن من الناحية الزمانية .. فهو يتتبع فن الرسائل فى صـدر الاسلام من بدايته ، وهـو عصر يبدأ بالنبوة الخاتمة ... ببعث النبى — عليه السلام — ويستغرق عهد الخلافة الراشدة الذى ينتهى باستشهاد على بن ابى طالب كرم الله وجهه سنة ٤٠ هـ .

* * *

كان هـذا هـو تطور الخاطر أو « المنولوج » الداخلى الى باعث نفسى تحول الى رغبة عارمة تتحقق فى هـذه الصفحات التى يطالعها القارىء .

وفى بطون كتب التاريخ والأدب ترد غير « **الرسالة** » أسماء أخرى تكاد تنحصر فى ثلاثة هى « **الكتاب** » و« **العهـد** » و « **الوصية** » وان كنت ارى فى اجمـال — واعتمادا على الاسـتقراء التاريخى والعرف الاستعمالى — أن « **الرسالة** » و « **الكتاب** » أوسع الاطلاقات مدلولا وان غلب استعمالهما فى « مكتوب » يحمله رسول الى شخص بعيد عن المرسل .

اما « **الوصية** » المكتوبة فمضمونها الفكرى يغلب عليه طابع التوجيه والارشاد فى مجال خاص أو عام . ويأتى « **العهـد** » غالبا ليجـدد حقوقا

وواجبات معينة بالكتابة ، ولكن هـذا الاجمـال لا يغنى عن التفصيل .
ولنبدأ بالمفهوم اللغوى فى بطون المعاجم :

الرسـالة :

جاء فى مختار الصحاح[٢] . راسله مراسلة فهو مراسل ورسيل . وارسله فى رسالة فهو مرسل (بفتح السين) ورسول والجمع رسـل (بتسكين السين وضمها) ... والرسول ايضا : الرسالة .

وجاء فى لسان العرب :

والارسال التوجيه — وقـد أرسل اليه والاسم الرسالة والرسالة . والرسول والرسيل ... والرسول بمعنى الرسالة .. يؤنث ويذكر .... والرسول : الرسالة والمرسل ... وسمى الرسول رسولا لأنه ذو رسول اى ذو رسـالة[٣] .

الكتـاب :

واصل الكتاب : كل ما يكتب فيه ، وفى الحـديث « من نظر الى كتاب أخيه بغير أذنه فكأنما ينظر فى النار » . وهـو محمول على الكتاب الذى فيه سر وأمانة يكره صاحبه أن يطلع عليه . وقيل هـو عام فى كل كتاب .

والكتاب : الدواة : يكتب منها .
والكتاب : التـوراة .
والكتاب : الصحيفة يكتب فيها .
والكتاب : يوضـع موضـع الغرض قال تعـالى « **كتب عليـكم القصـاص** »[٤] .

---

(٢) مختار الصحاح : مادة رسل .
(٣) لسان العرب مادة رسل ١٦٤٣/٣ .
(٤) تاج العروس : فصل الكاف باب الباء .

والكتاب : الفرض والحكم والقــدر . والكاتب عند العرب العالم ومنه قوله تعالى « **أم عندهم الغيب فهم يكتبون** »(٥) .

العهــد :

العهد : الوصية والأمر قال تعالى « **ألم أعهد اليكم يا بنى آدم** » .. وفى حــديث على ــ كرم الله وجهه ــ « عهد الى النبى الأمى ــ صلى الله عليه وسلم : أى أوصى .

والعهد : التقــدم الى المرء فى الشىء .

والعهد : الموثق واليمين يحلف بها الرجل ، والجمع عهود . تقول : « على عهد وميثاق لأفعلن كذا . وقيل ولى العهد لأنه ولى الميثاق الذى يؤخذ على من بايع الخليفة ... ومنه قول الله سبحانه وتعالى « **وأوفــوا بعهد الله اذا عاهــدتم** » وقال بعض المفسرين : العهد كل ما عوهــد الله عليه . وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد .

والعهد الذى يكتب للولاة مشتق من عهــد اليه عهــدا اذااوصاه .

والعهد : الحفاظ ورعاية الحرية .. والعهد الأمان وكذلك الذمة . وفى التنزيل العزيز « لا ينال عهدى الظالمون » .. وانما سمى اليهود والنصارى أهــل العهد للذمة التى أعطوها ...

والعهد : الالتقاء والمعرفة .. والعهد : المنزل ... والعهد : الزمان والعهد : أول المطر(٦) .

الصــحيفة :

الصحيفة : قطعة من جلد أو قرطاس يكتب فيه(٧) والجمع صحائف

---

(٥) مختار الصحاح مادة كتب .

(٦) تابع العروسى .

(٧) أساس البلاغة ٢/٧ .

وصحف (بضم الحاء) وصحف (بتسكين الحاء) وفى التنزيل « ان هــذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى » يعنى الكتب المنزلة عليهما .

قال الجوهرى : الصحيفة الكتاب . وفى الحــديث : أنه كتب لعيينة ابن حصن كتابا فلما أخــذه قال : يا محمد اترانى حاملا الى قــومى كتابا كصحيفة المتلمس[8] .

هــذه هى خلاصة مركزة لمــا جاء فى المعاجم اللغــوية فى الرســالة والكتاب والعهد والصحيفة : ونلاحظ على هــذه التعريفات اللغوية ما يأتى :

١ ــ انها جميعا تلتقى ــ وهــذا ما أكده العرف الاستعمالى ــ فى ركنين أساسيين هما : الطرفان أى الناقل والمنقول اليه أو المرسل والمرسل اليه . ثم المضمون المنقول أو المبعوث به . وقــد يكون هناك « رسول ناقل ولكنه لا يمثل عنصرا أساسيا لأن صاحب الرسالة أو الكتاب قــد يؤدى هــذه المهمة بنفسه .

٢ ــ وغير هــذا القاسم المشترك بينهما جميعا يختص الكتـــاب والصحيفة بعنصر أساسى وهــو الكتابة ، فمن فضول القول أن نقرر أن الكتاب لابد أن يكون مكتوبا ، وكذلك الصحيفة .. ومن ثم لا يطلق أى منهما على ما يبلغ أو ينقل لطرف آخر شفاهة .

ولكن الرسالة تكون كتابة كما تكون شفاهة على حــد قول زهير بن أبى سلمى فى **معلقته** :

ألا أبلغ الاحلاف عنى رسالة   وذبيان هل أقسمتم كل مقسم[9]

وكما نجــد فى قول كعب بن زهير بن أبى سلمى :

ألا أبلغا عنى بجيرا رســالة   على أى شىء ويب غيرك دلكا

---

(٨) لسان العرب مادة صحف ٤/٢٤٠٤ .

(٩) التبريزى : شرح القصائد العشر ص ١١٨ .

على خلق لم تلف ابنا ولا أبا — عليه ولم تدرك عليه أخا لـكا
مسقاك أبو بكر بكأس روية — فانهلك المـأمون منها وعلـكا[10]

وكذلك العهد يكون كتابة وشفاهة .

٣ — احيانا تستعمل كلمة « **الوصـــية** » بديلا للرسالة والكتاب ، وهى كذلك قــد تكون مكتوبة وقــد تكون شفوية ، ولكن مضمونها الفكرى يغلب عليه طابع التوجيه والارشاد فى مجال خاص أو عام .

٤ — ونجــد العهد غالبا يدور على محـــور أساسى هـــو ذكر حقوق معينة قبل الآخرين .. وغالبا ما يكون كتابة لحفظ هـــذه الحقوق وقـــد رأينا من معانيه اللغوية اليمين والميثاق ورعاية الحرية ... الخ .

٥ — كانت الرسالة والكتاب هما أشهر هـــذه الاطـــلاقات وأكثرها استعمالا على مدار التاريخ .. أما أقلهـــا بل أندرهـــا استعمالا فكلمـــة (الصحيفة) التى تستعمل فيما هـــو مكتوب ولو لم يكن ثمة أطراف تتبادل الصحيفة ما بين مرسل ومرسل اليه ... ويلاحظ انها لم تستعمل فى القرآن الكريم الا جمعا ، وبمعنى صحف الوحى وكتب الأنبياء[11] .

❋ ❋ ❋

وعلى أية حال يمكن أن نكتشف ما تلتقى فيه كل هـــذه الاطلاقات بأنه « **المكتوب الذى يتعلق فى مضمونه بأكثر من طرف** » .

---

(١٠) الأغانى ٦٣٦٤/١٨ : ديب غيرك : أى هلكت هلاك ابرك والبيت والأبيات ينكر فيها كعب على أخيه بجير اسلامه ، فاهـدر النبى دمه ثم كتب اليه اخـوه بان الاسلام يحب ما قبله فجاء النبى وأسلم على يديه وأنشده قصيدة « بانت سعاد .... » المشهوره .. وأنظر كذلك العمدة ٢٤/١ .

(١١) أنظر طـه ١٣٣ ، النجم ٣٦ ، عبس ١٣ ، الأعلى ١٨ ، ١٩ ، البينه ٢ . هـــذا وقـد آثرنا ارجاء الحـديث عن المفاهيم الفنية للرسالة وأنواعها وما دار فى فلكها لحين معالجة الموضوع ذاته فى عهديه عهد النبوة المحمدية وعهد الخلافة الراشدة .

وعلى عادة المناطقة وعادة أجـدادنا فى التعريفات يخرج المكتـوب كل ما كان شفاهة ولو كان رسالة او عهدا أو وصية .. والشق الثانى يخرج ما كتبه الانسان لنفسه ولو كان كتابا مؤلفا ، لأنه — وان كان كاتبه قـد قصد به أن يقرؤه الآخرون بقصد الافادة أو الشهرة أو تحصيل المال — لا يعد تعلقا بالمعنى المقصود والذى يكون غالبا تعلقا بشخص معين أو جماعة معينين ككتاب أبى بكر للمرتدين .. وعهد عمر لأهـل ايلياء .

على أن هـذه الفروق بين الرسالة والكتاب والعهد والوصية ليس لها أيه قيمة عملية ، ولا يترتب عليها اختلاف فى النتائج أو الأهـداف المنشودة التى توخاها صاحبها من كتابتها .

الخطبـة والرسـالة :

وفى مجال التفريقات يهمنا أن نشير فى عجالة الى لون نثرى يأتى فى المرتبة الثانية قيمة وشهرة بعـد الشعر وأقصـد به الخطابة ... « وتلتقى الخطبة مع الرسالة فى نقل مضمون معين الى فرد أو جماعة » ... ولكن الخطبة تختلف عن الرسالة فى عـدة أمور اهمها :

١ — أن الخطبة غالبا بنت البديهة والارتجال ، وهى بنت ساعتها أو لحظتها بلا اعـداد أو تهيؤ . أما الرسالة فيسبقها التأنى وتتطلب اعمال العقل ، وقـد تقتضى المراجعة والمعاودة .

٢ — وهى نتيجة للسمة الأولى : أن عنصر الفكر فى الرسالة يكون — فى الأغلب الأعم — أحضر وأقـوى فى الرسالة منه فى الخطبة .

٣ — الرسائل ادل وأصـدق فى التقييم الفكرى والفنى واقـدر على تحـديد ملامح صاحبها من الخطب ، لأن الخطب تنقل — غالبا — مشافهة وقـد لا تسجل الخطبة الا بعـد مضى عشرات من السنين . اما الرسائل فهى ابقى وأثبت على الزمن ، لانها « وثائق » مسجلة مكتوبة . وهـذا هو السر فى كثرة الروايات وتضاربها فى نقل الخطب وقل ذلك فى الرسائل . كما

أن فقــد جزء من الرسالة أمر بعيد الاحتمال وان كان فقــد الرسالة كلها أمر محتمل . أما الخطبة فمعرضة للنسيان الكلى أو الجزئى . وهــذا هــو السر فى عثورنا على بعض الخطب ذات سطور معــدودة ، وعلى نفس الخطب وقــد امتد النفس فيها حتى لتبلغ عشرات من السطور . ولا تعليل لذلك الا اختلاف طرق الرواية واختلاف الرواة حفظا ودراية(١٢) .

* * *

وهــذه الدراسة « ادب الرسائل فى صــدر الاسلام » كما يظهر من عنوانها : بحث فى « الرسالة » بكل أنواعها التى سنعرض لها وذلك فى صــدر الاسلام . وهو عصر كما هــو معروف حــده الزمنى قرابة نصف قرن ويبدأ من بعثة النبى ــ صلى الله عليه وسلم (٦١١ م) وينتهى سنة ٤٠ هـ بانتهاء آخر يوم من أيام الخلافة الراشدة . فهــو اذن ينقسم الى **فترتين** ــ لا اقول متميزتين تماما ــ ولكن أقول رئيسيتين ، فبموت النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ انقطع خبر السماء عن الأرض بتمام الوحى ... بذلك الاعلان الالهى « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لــكم الاسلام دينا** »(١٣) .

أما الفترة الثانية فتبدأ بخلافة أبى بكر وتنتهى باستشهاد على بن أبى طالب .. وهى فترة استغرقت من عمر التاريخ قرابة سبع وعشرين سنة اتسعت خلالها الدولة الاسلامية ، وانتشر الاسلام على نطاق واســع فى أنحاء المعمورة ، وحــدثت تطورات واضحة فى السياسة والأدب وأسلوب الحيــاة ..

وهــذا البحث يبحث « ادب الرســالة » فى هاتين الفــترتين اللتين يجمعهما عصر واحــد هــو عصر « صــدر الاسلام » ... وفى كلمات قلائل نعرض فى هــذا البحث بصفة أساسية لمــا يأتى :

(١٢) انظر كتابنا أدب الخلفاء الراشدين ٤٥٢ .
(١٣) المــائدة ٣ .

١ — اتجاهات الرسائل واطرافها ومضامينها الذاتيـــة والاجتماعيـــة والسياسية والانسانية أو ما يمكن أن نسميه المحور الموضوعى .

٢ — الملامح والسمات الفنية لهـــذه الرسائل فى اطوارها المختلفة .. أو ما يمكن أن نسميه المحور الفنى .

هـــذان هما المحوران الأساسيان اللذان يدور حـــولهما هـــذا البحث ... واذا كان هناك عناصر تفصـــيلية فهى ترتبـــط بهـــذين المحـــورين الأساسيين وتدور حولهما ولا تخرج عنهما ... كما سنرى فى صلب البحث ..

هـــذا وقـــد قسمت البحث قسمين اعتمادا على فترتيه الزمانيتين : وكان القسم الأول عن : الرسائل فى عهد النبوة ..

وكان القسم الثانى عن الرسائل فى عهد الخلافة الراشدة . وكل قسم من القسمين ينقسم الى فصول تدور كما ذكرت على المحـــورين الأساسيين اللذين ذكرتهما آنفـــا : المحور الموضوعى والمحور الفنى ..

وقـــد رأيت — لظروف لا يتسع المقـــام لشرحها أن تصـــدر هـــذه الدراسة فى جزئين ، يختص الجزء الأول بعهد النبوة — وهـــو الذى يسعد بيدى القارىء الآن . ويختص الثانى بعهد الخلافة الراشدة ، وسيصدر فى القريب العاجل ان شاء الله .

الفصل الأول

الكتابة في عهد النبي

عليه الصلاة والسلام



أمـــة أميـــة

بعث النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى أمة أمية ، وقـــد نص على ذلك القرآن الكريم بقوله : « **هـــو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتـــلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين** »[1] .

ولكن كتابا أفاضل محـــدثين يذهبون الى أن العرب فى الجاهلية لم يكونوا على هـــذه الأمية . ومن هؤلاء الدكتور حسين نصار الذى يرى أن الكتابة كانت منتشرة فى البلاد العربية ، وأن التجارة كانت العامل الأول الذى اظهر الكتابة فى بلاد العرب ، ولذلك نجـــدها منتشرة حيث توجـــد التجارة ، فهى تسير فى رحال الابل والمناطق التجارية ، اذ لم يكن التجـــار

---

(١) **الجمعة ٢** : جاء فى تفسير القرطبى : قال ابن عباس : الأميون : العرب كلهم من كتب منهم ومن لم يكتب ، لانهم لم يكونوا أهل كتاب · وقيل الأميون الذين لا يكتبون ، ·· وروى أن الأمى : الذى يقرأ ولا يكتب [مجلد ٨/٦٥٧٠] وجاء فى الكشاف : يتلو عليهم آياته · يقرؤها عليهم مع كونه أميا مثلهم لم تعهد منه قراءة ولم يعرف بتعلم [م ٤ ـ ص ١٠٢] وقيل ان العرب الأميين لانهم كانوا لا يقرأون ولا يكتبون ـ فى الأعم الأغلب · وروى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه قال : هكذا وهكذا وهكذا ، وأشار بأصابعه ، وقال « انا نحن أمة أمية ، لا نحسب ، ولا نكتب » · وقيل : انما سمى من لا يكتب أميا لانه نسب الى حال ولادته من الأم ، لان الكتابه انما تكون بالاستفاده والتعلم · [سيد قطب : فى ظـــلال القرآن مجلـــد ٣٥٦٤/٦] ·

العرب مستطيعين الاستغناء عنها فى معاملاتهم الداخلية أو الخارجية(٢) . وينقل عن « أوليرى » ان مكة عرفت نوعا من الحكومة الجمهورية فى أيامها الجاهلية ، وكان لهــذه الجمهورية دار تتداول فيها الرأى فى مشاكلها التجارية والسياسية والاجتماعية ، وتعقد فيها المعاهدات السياسية لدفع العــدوان أو تأمين السبل أو تبادل المساعدات العسكرية . . . وانا لنذكر حلف الفضول وحلف قريش ضــد بنى هاشم بعــد ظهور النبى ، وكتابتهم الصــحيفة المشهورة وتعليقها فى جــوف الكعبة . . . . وكتبوا المعلقات على القباطى بماء الذهب وعلقوها على جــدران الكعبة(٣) .

وقــد كثر ذكر الكتابة فى الشعر الجاهلى . . كما جاء فى القرآن ايضا ، فالقرآن يحث على تدوين الديون والمعاملات التجارية وغيرها مما يدل على أن الكتابة كانت شائعة عندهم . يقول تعالى « **يأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذى عليه الحق** »(٤) وكذلك يذكر القرآن أدوات الكتابة مثل القلم واللوح والقرطاس والصحف(٥) . . ويرى الدكتور نصار انه مما يدل كذلك على شيوع الكتابة فى المجتمع الجاهلى دوران لفظ الكتابة فى القرآن فى المواضع المختلفة ، والمعانى المتنوعة التى تتفرع عن لفظ الكتابة بمعنى التدوين والتثبيت مثل قوله تعالى « **كتب عليكم القتال وهــو كره لــكم** »(٦) . . . وغير ذلك من الآيات التى توحى بانتشار الكتابة منذ زمن غير قليل(٧) .

وما سبق يستلزم وقفة ومناقشة :

١ ــ فالقرآن كما قطع بأمية النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قطــع

---

(٢) انظر : د. حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى ٢٠ .
(٣) الســـابق ٢١ .
(٤) البقرة ٢٨٢ .
(٥) راجع آيات : القلم ١ ، والطور ١ ، ٢ ، ٣ .
(٦) البقرة ٢١٦ .
(٧) مصادر السابق ٢٤ ــ ٢٥ .

كذلك بأمية العرب فى الجاهلية .. وهـذا القطع ينصرف الى الغالبية العظمى من عرب الجزيرة العربية .

٢ ــ وتصوير المجتمع الجاهلى بهـذه الصورة الزاهية فى مجال السياسة ونظام الحكم والكتابة يجعل منه مجتمعا لا يقل قـوة وتقـدما عن الدولتين الملاصقتين له .. دولة فارس ودولة الروم . وهـذا مخالف للواقع التاريخى فقـد كانت دولة الفرس تتحكم فى المناذرة ، وكانت دولة الروم تتحكم فى عرب الغساسنة .

٣ ــ وكتابة بعض الصحف والعهود لا يدل على شيوع الكتابة .. فهى مذكورة فى التاريخ على سبيل الحصر . وأضعاف أضعافها كان يتم شفاهة ، واهتمام التاريخ واحتفاله بها يدل على قلتها ــ ومن العهود التى تمت شفاهة تعاقـد بنى عبد الدار وبنى عـدى ابن كعب بن لؤى وتأكيدهم حلفهم بوضع أيديهم فى الدم حتى سموا « لعقة الدم »(٨) ، بل ان أشـهر أحلافهم وهـو حلف الفضول كان شفاهة ولم يكتب . فقد كان استجابة تلقائية بدافع من الاريحية والشهامة الى الاتفاق على « أن لا يجـدوا بمـكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته .. »(٩) ولعل هـذا هو السر فى اختلاف المؤرخين فى القبائل والبطون التى دخلت فيه(١٠) .

٤ ــ والأمر بكتابة الديون يدل على حرص القرآن على حفظ الحقوق لا على شيوع الكتابة ، بل قـد يحوى أمرا ضمنيا بتعلمها وخصوصا اذا وضعنا بجانب هـذه الآية الثانية من سـورة الجمعـة التى تنص على أمية العرب .

على أن الأمر موجه الى الذين آمنوا فى كل زمان ومكان ... والقرآن قـد يأمر أو ينهى عن أمور ومسائل لا يكون لهـا وجود حقيقى فى المجتمع

(٨) سيرة ابن هشام ٢٠٤/١ .

(٩) السابق ١٤٠/١ وانظر من ١٣١ الى ص ١٤١ .

(١٠) انظر فى تفصيل ذلك الروايات المتعددة فى الأغانى ٦٥٩٧/١٩ ــ ٦٦١٦ .

حال نزوله مما يدل على عالميته وانه جاء لكل زمان ومكان ومثال ذلك قوله تعالى « **يأيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم** »(١١) .

وحينما فتح النبى — عليه السلام — مكة ، وأخـــذ بيعة الرجال ، ثم جلس لأخـــذ بيعة النساء ، وأخـــذ يقول ... لا تشركن .. ولا تسرقن .. ولا تزنين .. هبت هند بنت عتبة قائله فى استفهام استنكارى أو تزنى الحرة ؟ وفى رواية أخرى : ما زنت منهن امرأه قط(١٢) .

فهل خفيت هـــذه الحقيقة عن النبى — عليه السلام — ؟ هل غاب عن خاطره أن الحرائر لا يزنين ؟ اللهم لا . ولكنها عالمية التشريع ، فتحريم ما لم يكن سائدا فى جزيرة العرب ، وما لم يكن قاعـــدة لهـــا مكانها وثبوتها يدل فى ذاته على « عالمية الاسلام مكانيا من ناحية ، وعلى خلود الاسلام زمانيا من ناحية أخرى ، فالزنى فى وقتنا الحاضر — وبخاصة فى الغرب — أصبح مظهرا من مظاهر المدنية . او على الأقل لم يعـــد من الأفعال التى تشين مقترفها وتصمه بالاثم والعار والخروج على القانون والآداب(١٣) .

٥ — **والتعبير** بالكتابة فى نحو قوله تعالى « كتب عليكم القتال .. كتب عليكم الصيام ... الخ من المجاز الذى يعرفه العرب ولا علاقة له بانتشار الكتابة أو عـــدم انتشارها فمن المجاز : كتب عليه كذا : قضى عليه .. ، وهـــذا كتاب الله : قـــدره .

قال النابغه الجعـــدى :

يا بنت عمى كتاب الله أخرنى عنكم وهل أمنعن الله ما فعلا(١٤)

---

(١١) الممتحنـة ١٢ .

(١٢) الزمخشرى/الكشاف ٤/٩٥ .

(١٣) جابر قميحة : المدخل الى القيم الاسلامية ٢٠ .

(١٤) الزمخشرى : أساس البلاغة ٢/٢٩٤ .

٦ — وكتـــابة المعلقات بمـــاء الذهب على القبـــاطى وتعليقها على الكعبة[١٥] . . . راى مضعوف لا يهضمه العقل ، فقـــد نقضه الدكتور احمد الحـــوفى بأدلة تاريخية وعقلية قـــوية[١٦] ، وهـــو يتساءل بعـــد ذلك : كيف تصـــدق أن العرب كتبوا هـــذه القصائد بمـــاء الذهب على القباطى وهم أمة أمية ؟ وهـــل من المعقول أن ينبغ فيهم من يجيد الكتابة حتى يكتب بمـــاء الذهب على القباطى ؟ . . . وقـــد هـــدمت الكعبة وجـــدد بناؤها ، واشترك النبى — صلى الله عليه وسلم — فى وضع الحجر الأسود فى مكانه ، ثم جاء الاسلام وفتح النبى مكة ودخل البيت الحرام وحطم الأصنام ، ولم يرد للمعلقات ذكر فى هـــذه المرة أو تلك .

وقـــد ذكرت أنواع كسوة البيت الحرام فى الجاهلية . . . . ولم تذكر القباطى الا فى كسوة البيت فى صـــدر الاسلام فى عهد عمر وعثمان — رضى الله عنهما .

ثم من هؤلاء الذين كانوا يقضون بأن القصيدة جـــديرة بأن تعلق ؟ وهـــل اقفر الشعر القـــديم كله فلم تكن فيه قصائد جياد تستحق التعليق غير هـــذه السبع ؟ . . .[١٧] .

فالحكم اذن بشيوع الكتابة بكل ألوانها أو أغلب أنواعها من سياسية وتجارية وفنية فى المجتمع الجاهلى قـــول يعوزه الدليل ، وهـــو أشـــد ضعفا من الحكم بالأمية المطلقة على هـــذا المجتمع . اما الحكم السديد حقا فهو ما أوجزه المرحوم أحمد زكى صفوت من أن جمهرة العرب فى ذلك العصر كانت متبدية[١٨] فلم تكن الكتابة فيهم فاشـــية ، ولـــذا كانوا يعتمدون فى تراسلهم على المشافهة ، فيبعثون برسالاتهم شفهية مع أمناء ينتجعونهم[١٩]

(١٥) ممن قال بذلك ابن الكلبى وابن عبد ربه وابن رشيق القيروانى وابن خلدون .

(١٦) انظر كتابه الحياة العربية من الشعر الجاهلى ١٤٦ — ١٥١ .

(١٧) الســـابق ١٤٨ .

(١٨) تعيش فى البـــادية .

(١٩) يختـــارونهم .

لابلاغها ، وكانوا يحتفظون بآثارهم الأدبية فيستظهرونها فى الصـــدور ، ويتناقلونها على الألسن ، ولم يزاولوا من العلوم والفنون ما يقضى عليهم أن يدونوه ويقيدوه فى سجل يدرأ عنه عادية الضياع والامحاء . أما أهـــل الحاضرة منهم فقـــد ألمـــوا بالحضارة بعض الالمـــام ، وكانوا يمارســـون الكتابة ، ويتبادلون الرسائل المكتوبة ، ولكنهم لتقادم العهد لم يؤثر عنهم الا رسائل قلائل معـــدودة[20] .

فالأمر اذن كما قال الجاحظ « كل شيء للعرب فانما هـــو بديهـــة وارتجال وكأنه الهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا لجالة فكرة ولا استعانة ، وانما هـــو أن يصرف وهمه الى الكلام والى رجز يوم الخصام ، او حين يمتح على رأس بئر ، أو يحـــدو ببعير أو عند المقـــارعة والمنـــاقلة أو عند صراع أو فى حرب ، فما هـــو الا أن يصرف همه الى جملة المذهب والى العمود الذى اليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيـــالا[21] .

من هنا كان للشعر المقام الأول من الكلام ، وحينما أخـــذ العرب ببيان القرآن وبلاغته لم يجـــدوا من فنون القول ما « يرمون » به القرآن الا انه شعر وما « يرمون » به النبى ـــ عليه السلام ـــ الا انه شاعر[22] وهـــذا « الاتهام » يعـــد شهادة بأن الشعر هـــو أرقى كلام البشر .

ثم تأتى الخطابة فى المرتبة الثانية من فنون الكلام فهى كالشعر تعتمد عند العرب على « بديهة وارتجال » ولم يكن للخطيب فى المجتمع الجاهلى ما كان للشاعر ، اذ كانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر اتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كمـــا يصنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن

---

(٢٠) جمرة رسائل العرب ٩ وانظر احمد أمين : فجر الاسلام ١٤٠ وما بعـدها .

(٢١) البيان والتبين ١٣/٣ .

(٢٢) أنظر آيات : الصافات ٣٦ ، والأنبياء ٥ والطور ٣ والحاقة ٤١ .

أحسابهم ، وتخليد مآثرهم ، واشادة بذكرهم . وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج[٢٤] .

* * *

النبى الأمى

بعث الله محمدا عليه السلام اميا — اى لا يقرأ ولا يكتب ، ولم ينقل أن الله تعالى بعث نبيا أميا غيره ، فهو وصف خاص لا يشارك محمداً — صلى الله عليه وسلم — فيه أحد من النبيين . والأمية آية من أكبر آيات نبوته ، فانه جاء بعد النبوة بأعلى العلوم النافعة ، وهى ما يصلح ما فسد من عقائد البشر واخلاقهم وآدابهم ، وأعمالهم واحكامهم ، وعمل بها ، فكان لها من التأثير فى العالم ما لم يكن ، ولن يكون لغيره من خلق الله[٢٥] .

وحينما جاء الاسلام كانت الأمية متفشية فى بلاد العرب فلم يكن هناك من يكتب بالعربية — كما يذكر ابن عبد ربه — الا سبعة عشر انسانا وهم على بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله ، وعثمان بن عفان ، وابو عبيدة بن الجراح ، وأبان بن سعيد بن العاص وخالد بن سعيد اخوه ، ابو حذيفة بن عتبة ، ويزيد بن أبى سفيان ، وحاطب بن عمرو ابن عبد شمس ، والعلاء بن الحضرمى ، وابو سلمة بن عبد الأسد ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وحويطب بن عبد العزى ، وأبو سفيان بن حرب ، ومعاوية ولده ، وجهين بن الصلت بن مخرمة[٢٦] .

ويقال انه كان للنبى — صلى الله عليه وسلم — ثلاثون كاتبا منهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن ابى طالب[٢٧] . واختلف

(٢٤) العمدة ٦٥/١ .
(٢٥) تفسير المنار ٢٢٥/٩ .
(٢٦) العقد الفريد ٢٥/٤ . وفتوح البلدان للبلاذرى ٤٥٧ .
(٢٧) صبح الأعشى ٩٢/١ .

فى هــذا العــدد فذكر انهم ثلاثة وعشرون ــ أو خمسة وعشرون ، وأوصلهم القرطبى فى تفسيره الى ستة وعشرين وأوصلهم « الشبراملسى » الى أربعين ، وأوصلهم العراقى الى اثنين وأربعين ، وأوصلهم البرهان الحلبى الى ثلاثة وأربعين(٢٨) .

ولكنا نرى أن العــدد مبالغ فيه الا اذا أدخلنا فى هــذا العــدد من كان يكتب له الكلمة والكلمتين ، والجملة والجملتين . ولم يكتب للرســول ــ عليه السلام ــ الا الوحى من ناحية والرسائل والعهود من ناحية أخرى وكل ذلك لا يحتاج الى هــذا العــدد الهائل من الكتاب ، فى وقت كان عــدد الكتاب قليلا حتى أنه لم يكن هناك من الكتاب عند بزوغ شمس الاسلام الا سبعة عشر كاتبا ذكروا على سبيل الحصر .

وقــد ذكر الجهشيارى أسماء ثمانية كانوا يكتبون للرســول تلقيــا منه ــ أى الوحى أو الرسائل أو المغانم ــ وهم : على وعثمان وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وخالد بن سعيد ومعاوية ومعيقيب بن أبى فاطمة حليف بنى أســد الذى كان يكتب مغانم الرسول وعبد الله بن أبى السرح . وذكر أسماء أخرى لرجال كتبوا فى عهد النبى : هم :

المغيرة بن شعبه والحصين بن نمير وكانا يكتبان ما بين الناس .

وعبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة وكانا يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياههم وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء .

وحنظلة بن الربيع الذى كان خليفة كل كاتب من كتاب النبى اذا غاب عن عمــله(٢٩) .

وهــذا يعنى أنه كان للنبى كتاب معروفون على سبيل الحصر ، كما

---

(٢٨) انظر : الكتانى : الترتيبات الادارية ١/١١٥ وما بعدها .

(٢٩) الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٢ .

أنهم عرفوا نظام « الكاتب الاحتياطى » الذى يسد مسد من يغيب . وما يذكره الجهشيارى يدل على أن الكتاب ايام النبى كانوا نوعين :

النوع الأول : الكتاب المباشرون الذى يتلقون من النبى ــ عليــه السلام ــ مباشرة فيكتبون له الوحى والرسائل .

النوع الثانى : كتاب الدولة ــ على ما فى هــذا التعبير من توسع وسماحة ــ وهم من يسجلون ما يحتاج الى تسجيل من غنائم الحروب وأنصبة الناس وحاجات قومهم وما شابه ذلك .

وأقل من ذلك بكثير النساء اللائى كن يكتبن مثل الشفاء بنت عبد الله التى كانت كاتبة فى الجاهلية ، وحفصة بنت عمر ، وأم كلثوم بنت عقبة . أما أم سلمة فكانت تقرأ ولا تكتب[٣٠] .

* * *

هــل كتب الرســول فى حياته ؟

ربما كان السبب فى اثارة هــذا السؤال على الرغم من نص القرآن على أمية النبى ــ عليه السلام ــ هــو ما جاء فى كتب الحــديث والسيرة وأشهرها البخارى[٣١] من أن النبى ــ عليه السلام كان يملى على بن أبى طالب صلح الحــديبية بحضور مندوب قريش : سهيل بن عمرو ، فلما قال النبى ــ عليه السلام ــ « **هــذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ،** قالوا : لا نقر بهــذا ، لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا ، ولكن انت محمد بن عبد الله ، فقال : **أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله ،** ثم قال لعلى : **امح رســول الله ،** قال على : والله لا أمحوك أبدا ، فأخــذ رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الكتاب ، وليس يحسن أن يكتب فكتب . **هــذا ما قاضى محمد بن عبد الله لا يدخل مكة السلاح ألا السيف فى القراب ، وان لا يخرج من**

(٣٠) فتوح البلدان ٤٥٨ .

أهلها باحــد ان أراد أن ينبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحــدا ان أراد أن يقيم بها ... »[٣١] .

واثار هذا الخبر جدلا طويلا بين العلماء عرضه الكتانى بتفصيل[٣٢] محوره **مفهوم أمية الرسول ومداها . وهــذه الآراء نائاد تنحصر فى ثلاثة هى :**

الرأى الأول ـــ أن أمية الرسول كانت قبل ورود القرآن ، وبعــد ما تحققت أميته ، وتحققت معجزته لا مانع من كتابته بالتعليم فتكون معجزة أخرى .

الرأى الثانى : قريب من الرأى الأول ولكنه يجعل تعلمه مقيدا محدودا ، فلعله لكثرة ما أملى على كتاب الوحى وكتاب السنن والكتب الى الملوك عرف من الخط وفهمه وكتب الكلمة والكلمتين كما كتب اسمه الشريف يوم الحديبية . وليست كتابته لهــذا القــدر اليسير مما يخرجه عن كونه أميا .

الرأى الثالث : أنه ظــل على أميته المطلقة ـــ وأن تحريكه يده وهـــو لا يحسن الكتابة كان معجزة لوقتها لأنه « انما حركها فجاء المكتوب صوابا » .

والحقيقة ان الراى الأول ليس عليه دليل لأن القرآن نص عى أميــة الرسول فى سورة مكية هى سورة الأعراف ، واكد ذلك بالنص عليه فى سورة مدنية نزلت بعــد استقرار المسلمين فى المدينة بسنوات وهى سورة الجمعة وهى من أواخر السورة المدنية فهى الرابعة والعشرون نزولا بالنسبة للسور المدنية وعــددها ٢٨ سورة . وهى العاشرة بعــد المــائة بالنسبة للقرآن كله . ووصفه عليه السلام بالأمية فى آيتى الأعراف بصفة خاصة وصف يدل على الثبوت دون ارتباط بقبلية أو بعــدية .

---

(٣١) البخارى كتاب القضاء ١٧٩/٥ وصحيح مسلم : باب صلح الحديبية ٤٢٠/٤ مع اختلاف فى اللفظ [وفى مسلم فى رواية البراء بن عازب ان عليا حينما رفض محــو رسول الله . قال له النبى : أرنى مكانها فاراه مكانها وكتب (ابن عبد الله) ٤٢٢/٤ وانظر المقريزى : امتاع الأسماع ٢٩٦ وسيرة ابن هشام ٢٢٩/٣ وليس فيهما ذكر بأن النبى كتب بيده .

(٣٢) الترتيبات الادارية ١٧٢ ـ ١٧٧ .

والرأى الثانى ظاهر التهـافت ، لأن الذين قالوا به يأخـذهم التردد والحـذر والحرج فلا يقطعون بالقول ، فيعبرون بـ « **لعـله** » ثم ما قيمة « **كثرة ما أملى على كتـاب الوحى وكتـاب السنن والكتب الى المـلوك** » اذا كان ما سيتعلمه من كل ذلك هـو الكلمة والكلمتين وكتابة اسمه ممـا لا يخرجه عن كونه أميا .

والرأى الثالث غير مستساغ ، وبعيد عن التصور **لأن تحريك اليـد** بالكتابة دون فهم لهـا ومجىء المكتوب صوابا وذلك **معجزة .. أقول كل** ذلك غير مستساغ وظاهر الافتعال . والقائلون به **يعوزهم الدليل ...**

وأمام هـذه المسألة أو هـذه الواقعة .. أو ما قيل انه حـدث من محـو وكتابة يوم الحـديبية فى حاجة الى وقفة نخلص منها الى ما نراه يقينا أو قريبا من اليقين :

١ ـ فهناك اضطراب واختلاف كبير فى الروايات فى كتب الحـديث والسيرة : فاحـدى روايات البخارى تنص على أن النبى عليه السلام لم يكتف بمحو « **رسول الله** » وكتابة « **ابن عبـد الله** » مكانها بل انه استقل بكتابة قـدر كبير من الكتاب بينما روايات الامام مسلم **بعضها نص على** المحـو ولم يذكر أنه ـ عليه السلام ـ كتب . **واحـدى الروايات تذكر** أنه سأل عليا عن مكان « محمد رسول الله » فى كتاب الصلح ، **فمحا « رسول الله » وكتب «** ابن عبد الله » بيده ... وليس فى **واحـدة من هـذه الروايات** أن النبى عليه السلام أضاف أكثر من ذلك .

٢ ـ هـذا وليس فى سيرة ابن هشام أى ذكر للمحو والكتابة **بل ذكر** اعتراض **سهيل** بن عمرو على « بسم الله **الرحمن الرحيم » و « رسـول** الله » .. فاستبدل بهما « باسمك اللهم » و « ابن عبد الله » **كما لم يذكر أى** اعتراض من على .

وكان عمر بن الخطاب هـو اشد المعترضين على الصلح ابتداء ممـا نسميه بالمصطلح الحـديث « المحادثات التمهيدية » وواجـه **فى غضب ونقمة** أبا بكر باعتراضه هـذا ، وعبر عن ذلك للنبى ـ **عليه السلام ـ واعتبر**

هـــذا « اعطاء للدنية فى الدين » ومع ذلك استجاب عمر للنبى عليه السلام فأصاخ لمـــا رأى ، بل أبدى من الندم ما ابدى بسبب اعتراضه هـــذا فكان يقول « ما زلت أتصدق وأصوم ، وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا »(٣٣) .

٣ ـــ ويذكر المقريزى أن الصلح كان على غير رغبة الناس ، ولم يشر الى أى **اعتراض من على** ، وأن الاعتراض على الصيغة كان عاما وبخاصة استهلال العهد ويذكر أن سهيل بن عمرو حينما أصر على استبدال « محمد بن عبد الله « بمحمد رسول الله » ضج المسلمون منها حتى ارتفعت الأصوات ، وقام رجال يقولون : لا نكتب الا محمد رسول الله . واخـــذ اسيد بن حضير وسعد بن عبادة ـــ رضى الله عنهما بيد الكاتب (وهـــو على) فأمسكاها وقالا : لا تكتب الا محمد رسول الله والا فالسيف بيننا . . . فجعل رســـول الله يخفضهم ، ويمىء اليهم بيده اسكتوا . . . وقال لعلى : أنا محمد بن عبد الله فاكتب فكتب « **باسمك اللهم ، وهـــذا ما اصطلح عليـــه محمـــد بن عبد الله وسهيل بن عمرو . . .** »(٣٤) .

وهـــذه الرواية هى الأقرب الى العقل والى طبيعة الوقائع والأحـــداث فالغضب والاعتراض على الصلح كان عاما . . وما كان لعلى ـــ وهـــو الذى تربى فى بيت النبوة ـــ ان يخالف عن أمر النبى ويمتنع عن كتابة أو محـــو عبارة . ومن عجب أن روايات « المحـــو » تذكر أن عليا محـــا بيده « بسم الله الرحمن الرحيم » وهى آية قرآنية ليستبدل بهـــا عبارة كثرة الورود فى الجاهلية وهى « باسمك اللهم » فكيف غاب عنه أن محـــو هـــذه العبارة لا يقـــل ان لم يكن أشـــد على نفس المؤمن من محـــو « رسول الله » ليستبدل بها « ابن عبد الله » .

٤ ـــ وارى ان تلك الرواية التى تذكر رفض على المحـــو ثم رضوخه بعـــد ذلك حتى لو كان التغيير قـــد تم بيد النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ

---

(٣٣) سيرة ابن هشام ٢٢٩/٣ .

(٣٤) امتاع الأسماع ٢٩٧ .

من وضع الشيعة أو غلاتهم لتبرر قبول على التحكيم والتصالح مــع معاوية بعــد ذلك بثلاثين سنة[٣٥] **ولننظر بعض ما جاء فى ذلك :**

« ... وحضر عمرو بن العاص عند على ليكتب القضية بحضوره فكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم . هــذا ما تقاضى عليــه **أمــير المؤمنين ..** فقال عمرو : اكتب اسمه واسم ابيه ــ وهــو أميركم وأما اميرنا فلا . فقال الأحنف بن قيس : لا تمح اسم امارة المؤمنين فانى اخاف ان محــوتها أن لا ترجع اليك أبدا ... فأبى ذلك على مليا من النهار ، ثم ان الأشعث بن قيس قال : امح هذا الاسم . فمحى ، فقال على الله اكبر سنة بسنة[٣٦] . والله انى لكاتب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوم الحــديبية فكتبت : محمد رسول الله ، وقالوا : لست برسول الله ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فأمرنى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمحوه فقلت : لا استطيع ، فقال ، أرنيه ، فمحاه بيده ، وقال انك ستدعى الى مثلها فتجيب .... » .

لقــد أثار قبول على التحكيم انشقاقا فادحا فى جيشه وادى الى خروج آلاف من جنوده عليه وهم الذين سموا بعــد ذلك بالخوارج . وانتهى الأمر بمقتله على يد خارجى هو عبد الرحمن بن ملجم ، بل كان الكثيرون من أنصار على ورءوس حوارييه ممن يعارض التحكيم . وكأنما قــد وجــد الشيعة أو المتحمسون منهم فى الحــديبية مخرجا وتبريرا لقبول على التحكيم وصــيغة الصلح ومن ثم كان تعمد خلق وجــوه شبه بين الصلحين وخاصة فيما يتعلق بالتنازل عن « لقب الرسالة » فى الحــديبية . ولقب الامارة فى التحكيم .

***

وكتابة على جبل سلع :

ويثور فى هــذا المقام أيضا ما هــو مكتوب حفرا على جبل سلع[٣٧] ، فعلى اليمين كتب اسم أبى بكر وعلى اليسار « أنا محمد بن عبد الله » و « انا

(٣٥) أنظر الكامل لابن الأثير ٣/٣١٦ (وكان ذلك سنة ٣٧ هـ) .

(٣٦) من معانى السنة : الطريقة والوجه والصورة ، والامام على يقصد أن ما يحــدث اليوم انما هــو صورة لمــا حــدث ايام النبى عليه السلام .

(٣٧) سلع جبل قريب من المدينة .

على بن أبى طالب » ويقال ان ذلك كتب سنة ٥ للهجرة وهـو زمن غزوة الخنـدق .

ولا يستبعد الدكتور حميد الله صحة هـذه الكتابة التى شاهدها بنفسه فى شهر محرم سنة ١٣٥٨ هـ[٣٨] . ويكتب تحت الصورتين غير الواضحتين اللتين عرضهما فى كتابه لهـذه الأسماء الثلاثة « ... كأن النبى مر بهم ينحتون فقال انحتوا اسمى ايضا معكم » .

وفى بحث قيم انكر احـد الباحثين أن تكون هـذه الكتابة منسوبة حقيقة لأصحاب هـذه الأسماء مستدلا بما يأتى :

١ ــ لو كان هـذا صحيحا لكتب على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ محمد رسول الله لا محمد بن عبد الله .

٢ ــ لو ثبتت هـذه الكتابة فى عصر النبوة لكان لابد لهـا من مثيل فى أى مكان آخر مثل غارثور أو جبل أحـد أو غير ذلك من حصون اليهود التى تم تطهيرها فى بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة أو خيبر فيما بعـد ذلك . ولكن المسلمين لم يكن لهم وقت لمثل هـذا النحت .

٣ ــ لو ايدنا هـذا الرأى الذى يرى أن هـذه الكتابة من عهد النبوة لرأينا مستشرقا مثل مرجليوث يأتى فيدعى أن محمدا لم يكن أميا ، وانه الذى كتب بخطه هـذه الكلمة « محمد بن عبد الله » . وقـد قيل ذلك قبل هـذا الكشف . فالمستشرق الألمانى « نلدكه » فى كتابه « تاريخ القرآن » يتساءل « هل كان النبى محمد يعرف القراءة والكتابة ؟ » ثم يزعم ان لفظـة أمى الواردة فى القرآن لا تعنى جهل الرسول تماما بالقراءة والكتابة ، بل تفيد أنه لا يعـرف الأسـفار القـديمة . كمـا جـاء فى « قاموس الاسـلام » Dictionary of Islam ما نصه « .... ومع ذلك فمن المحقق انه كان يتظاهر بأنه يجهل القراءة والكتابة لكى يجعل انشاء القرآن معجزا »[٣٩] .

---

(٣٨) مجموعة الوثائق السياسية ٢٠ .

(٣٩) أنظر « الاستراتيجية الاسلامية فى غزوة الخندق والكتابة التى وجدت على جبل سلع » بحث للدكتور عبد الباقى قصة ٦٦ ــ ٨١ من مجلة « الـدارة » ربيـع الأول ١٣٩٧ ــ فبراير ١٩٧٧ م .

وخلاصة رأينا فى هذه المسألة :

١ — أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قطع بأميته من اول يوم نزل فيه الوحى فى قوله « ما أنا بقارىء » كما قطع القرآن بذلك فى الآيات التى عرضناها . ويجب أن لا تصرف عن معناها لعدم وجود مسوغ للتأويل .

٣ — أن الأمية لازمته من أول بعثته الى أن لقى ربه لارتباط الحكمة بها ارتباطا دائما غير موقوت وهى عمق القدرة والاعجاز فى هذه الرسالة الربانية .... فنزولها على أمى أبلغ فى الأثر والدلالة من نزولها على قارىء كاتب .

٤ — وهى أمية شاملة تصدق على ما كان بالعربية وما كتب بغيرها يدل على ذلك انه أمر زيد بن ثابت أن يتعلم اللغة السريانية حتى يقرأ له هذه الكتب التى ترد اليه بهذه اللغة(٤٠) .

٥ — ولم يرو عنه عليه السلام — فى خبر صحيح — أنه كتب بنفسه آية أو رسالة أو توجيها . ولو لم يكن أميا ما اتخذ من الصحابة من يكتب له الوحى أو يكتب له الرسائل الى الملوك والأمراء والولاة والقادة والناس . على ما سنراه فى الفصول التالية .

وسنرى انه قد كتبت للنبى — صلى الله عليه وسلم — كتب وعهود ، وقد كانت البدايات شفاهة لا كتابة ، وكانت تسير مع الدعوة فى ارتباط طردى : تتسع دائرة الدعوة ... يزداد الاتصال بالآخرين ... يتم بالدين الجديد « ارتباط » تنشأ عنه علائق والتزامات جديدة منها التعبدى ومنها الخلقى ، ومنها الاجتماعى . وتكون هناك « اتفاقات » شفوية ، و « بيعات » غير مكتوبة . وكل أولئك كان تمهيدات لعهود تكتب ، وعقود تفصل فيما بعد . ووراء كل أولئك بواعث ودوافع متعددة الألوان . وبيان ذلك يقتضى مواكبة الدعوة والداعية فى المسيرة المتطورة من بدايتها وهو موضوع الفصل الثانى من هذا القسم .

---

(٤٠) أسد الغابة ٢/٢٧٩ .

الفصل الثاني

البواعث والدوافع



فى مــكة : سنوات الاعــداد

كان نزول جبريل على محمد ــ عليه السلام ــ فى غار حراء بداية عهد جــديد فى تاريخ البشرية . . . وكانت « اقرأ » هى بداية عهد النبوة الخاتمة ، التى سينقطع بعــدها خبر السماء عن الأرض بعــد تمام الرسالة واكمال قواعــد الاسلام الدين العالمى الخالد .

وعلى مدى ثلاثة عشر عاما كانت الدعوة الى الله على بصيرة ونقــاء وتقــوى . ولاقى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ واصحابه من عنت الكفار وخشونتهم واصرارهم على الباطل ما هــو معروف فى السيرة . . ولكنه كان دائما يتدرع بالايمان والصبر والتحمل والسماحة ، وكانت الكلمة التى يرطب بها لسانه دائما « **اللهم اهــد قــومى فانهم لا يعلمون** » . وكلمــا اشتدت قريش فى اذاها وعنجهيتها ازداد اصرارا على مواصلة جهوده فى الدعوة الى الله .

ومن الطبيعى أن يعرض الرسول أولا الاسلام على الصق الناس به من آل بيته وأصــدقائه . وهــؤلاء لم تخالجهم ريبة قط فى عظمة محمــد وجلال نفسه وصــدق خبره ، فلا جرم انهم السابقون الى مؤازرته واتباعه . آمنت زوجته خــديجة ومولاه زيد بن ثابت ، وابن عمه على بن أبى طالب ــ وكان صبيا يحيا فى كفالة الرسول ــ وصديقه الحميم أبو بكر . ثم نشط أبو بكر فى الدعوة الى الاسلام فأدخل فيه أهــل ثقته ومودته عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص ، وآمن القس ورقة بن نوفل . . . . وأسلم الزبير بن العوام وأبو ذر الغفارى وعمرو بن عنبسة وسعيد بن العاص . وفشا الاسلام فى مكة بين من نور الله قلوبهم ، مع أن الاعلام به

كان يقـــع فى استخفاء ،ودون مظاهرة من التحمس المكشوف أو التحـــــدى السافر . . . واستمر هـــذا الطور السرى للدعوة ثلاث سنين ثم تنزل الوحى يكلف الرسول بمعالنة قـــومه ومجابهة باطلهم ومهاجمة أصنامهم جهارا[1] .

ثم ان الله عز وجل أمر رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يبادى الناس بأمره وأن يدعو اليه. . .قال الله تعالى له « **فاصدع بمـــا تؤمر واعرض عن المشركين** »[2] وقال تعالى « **وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، وقل انى انا النـــذير المبين** »[3] .

***

واتسعت دائرة الدعوة فى نطاق مكة ومع اتساع الدائرة دخل عشرات من الناس فى الدين الجـــديد اغلبهم من المستضعفين الذين لم يكن لهم مكانة اجتماعية يرتكزون عليها ، ولكن اسلام حمزة وعمر كان ولا شك كسبا كبيرا للدين الجـــديد . ومع اتساع دائرة الدعوة اتسعت دائرة المعاناة ، ومن ثم كان لابد من الخروج الى دائرة او دوائر أوسع . **وكان هـــذا التوسيع او هـــذا الخروج الذى يمثل اول العلائق « بالخارج » يتمثل فى عملين :**

الأول : هجرتا بعض المسلمين الى الحبشة .

الثانى : هجرة النبى والمسلمين من مكة الى المدينة وما سبقها من بيعتى العقبة الأولى والثانية .

كانت الهجرة الأولى الى الحبشة فى السنة الخامسة من البعثة لمـــا اشتد البلاء والأذى بالمسلمين . قال ابن اسحق : فلما رأى رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هـــو فيه من العافية

---

(١) محمد الغزالى فقه السيرة : ٧٥ .

(٢) الحجـــر ٩٤ .

(٣) الشعراء ٢١٤ ـ ٢١٥ سيرة ابن هشام ٢٦٤/١ .

بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب ، وأنه لا يقـــدر أن يمنعهم ممـــا هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحـــد ، وهى أرض صـــدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا ممـــا انتم ، فخرج عند ذلك المسلمون من اصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفرارا الى الله بدينهم(٤) . وكان اول من خرج من مكة فارا بدينه الى الحبشة عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتبعه الناس ، فخرج أحـــد عشر رجلا واربع نسوة متسللين ، منهم الراكب والمـــاشى الى أن ادركوا سفينتين للتجـــارة حملوهم فيهـــا الى أرض الحبشة فخرجت قريش فى آثارهم فلم تدركهم . ولم يمكثوا فى الحبشة الا شهرين . وبلغهم أن قريشا أسلمت فعاد بعضهم ، وبلغهم أن اسلام قريش كان باطلا فدخلوا مكة وما منهم من احد الا بجوار أو مستخفيا . واقام المسلمون بمكة وهم فى بلاء .

ثم كانت هجرة المسلمين الثانية الى الحبشة وكان على راس المهاجرين جعفر بن أبى طالب ومعه عدد من المسلمين وأرسلت قريش فى أثرهم عمرو بن العاص وآخرين ومعهم هـــدايا الى نجاشى الحبشة ، وحاولوا أن يشـــوا بالمسلمين عند ملك الحبشة ويشوهوا نظرة الاسلام الى المسيح بن مريم .. ولكن جهودهم اخفقت ... وعامل النجاشى المسلمين معاملة طيبة وأنزلهم منزلا كريمـــا(٥) .

ويطرح الدكتور هيكل(٦) سؤالا تقريريا هـــو : اكان كل القصد من هـــذه الهجرة التى قام بها المسلمون بأمر النبى ورأيه الفرار من كفار مكة وما يلحقون به من الأذى ؟ أم انها كان لهـــا كذلك غرض سياسى اسلامى رمى محمد من ورائه الى غاية عليا ؟ من حـــق مؤرخ محمد أن يسأل عن هذا

(٤) ابن هشام ٣١٥/١ .
(٥) انظر المقريزى : امتاع الأسماع ٢٠ ــ ٢٢ .
(٦) حيـاة محمـد ٦٩ .

بعـد ما ثبت من تاريخ هـذا النبى العربى فى أطوار حياته جميعا انه كان سياسيا بعيد الغـور كما كان صاحب رسالة وأدب نفسى لا يدانيه فيهما فى السمو الجلال والعظمة مدان .

ويميل الدكتور هيكل الى تفسير هاتين الهجرتين الى الحبشة تفسيرا سياسيا مستأنسا فى تأييده بما يروى من أن أهل مكة لم يستريحوا الى خروج من خرج من المسلمين الى الحبشة ، بل بعثوا رجلين الى النجاشى ومعهما الهـدايا النفيسة ليقنعوه بأن يرد المسلمين من مواطنهم اليهم . والحبشة ونجاشيها كانوا نصارى ، فليس تخشى قريش عليهم من الناحية الدينية أن يتبعوا محمدا .

وأعتقد أن « تسييس » الهجرة الى الحبشة أى افتراض أنها كان لهـا غرض سياسى اسلامى رمى محمد من ورائه الى غاية عليا ، اسراف لا مسوغ له . وكون النبى — صلى الله عليه وسلم — سياسيا بعيد الغور لا يلزم منه طبع كل ما كان له من تصرفات وأعمال وقرارات بطابع سياسى .

ولعل عبارة ابن اسحق التى نقلها ابن هشام تبرز لنا الباعث الـذى حـدا بالنبى — عليه السلام — الى أمر أصحابه بالهجرة وهـو « ما يصيب أصحابه من البلاء » و « ما هـو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمـه أبى طالب »(٧) لقـد اشتد البلاء بالمسلمين والايذاء ، ولم يكن النبى يستطيع أن يدفع عنهم الأذى حتى عن أقرب الناس اليه : ابنته رقية وزوجها عثمان ابن عفـان . أما هو فلكان هناك من تتقى قريش هيبته وهو عمه أبو طالب . فعز على النبى — صلى الله عليه وسلم — أن يكون فى عافية والمسلمون فى هـذه الحال من الاضطهاد والايذاء فأمرهم بالهجرة فرارا بدينهم وبحثا عن الطمأنينة والسلامة .

---

(٧) كانت الهجرتان الى الحبشة سنة ٥ من البعثة . ومات أبو طالب وخديجة سنة ١٠ من البعثة وسمى العام عام الحزن .

وقـــد برر النبى ــ عليـــه السلام ــ اختياره الحبشة دون غـــيرها بتبريرين هما : عـــدالة حاكمها وصـــدق أهلها . وربما كان مصدر ذلك تدينهم الصحيح يدل على ذلك ما دار بين النجاشى وبين رســـل الكفـــار فى طبيعة المسيح ــ عليه السلام ــ وقول القرآن فيه .

وما حرص الكفار على رد المسلمين من الحبشة الا نكاية فيهم وتضييقا عليهم لأنهم رأوا فى نجاحهم فى الفرار اهانة لهم ووصما بالعجز والضعف ، وهى عنجهية لازمتهم فى صلح الحـــديبية اذ أصر سهيل بن عمرو على أن ينص فى الصلح على انه من اتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم . ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه[8] . بل انهم كانوا يخشون أيضا أن ينتشر الاسلام على أيدى المهاجرين فى الحبشة فنصرانية اهلهـــا لا تقف حائلا دون ذلك كما ذهب الدكتور هيكل ، وكما سنعرف بعد قليل .

ولكن هذه الهجرة كان لهـــا ولا شك آثار طيبة وان كانت غير مباشرة وتتلخص فيما يأتى :

١ ــ انها اثبتت للكفار قدرة المسلمين على الحركة والتصرف والسياحة فى آفاق خارجية .

٢ ــ انها نقلت ــ لأول مرة ــ اسم الاسلام خارج الجزيرة العربية ، وبدأت عيون الأحباش تنفتح لأول مرة على اسلام هؤلاء المهاجرين ، وكان ذلك ما تخشاه قريش دون شك . وتحققت فى هـــذا المجال الدينى نتيجة طيبة وان كانت جزئية ، فقـــد نقـــل ابن اسحق أنه قـــدم بعـــد ذلك على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهـــو بمكة عشرون رجلا او قريب من ذلك حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجـــدوه فى المسجد ، فجلسوا اليه ، وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى انديتهم حول الكعبة ، فلما فرغـــوا

---

(٨) انظر سيرة ابن هشام ٢٢٨/٣ .

من مسألة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عما أرادوا دعاهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمـــع ، ثم اســـتجابوا لله وآمنوا به ، وصـــدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من امره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهـــل بن هشام فى نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب !! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بمـــا قال ، ما نعلم ركبا أحمق منكم . . . فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنـــا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا(٩) .

ونعود فنؤكد ان هجرة المسلمين الى الحبشة لم تكن ذات مضـــمون سياسى ، وكانت محـــدودة الهـــدف ، أو بتعبير آخر كانت فى المقام الأول « ذاتية الهـــدف » . . . فرارا بالدين وبحثا عن السلامة ، ومن البـــدهى أن نقول أن ذلك لا يمنع من تحقق نتـــائج تبعيـــة لم تكن منشودة متوخاة فى الأصـــــل . .

* * *

الهجرة الى المدينة أو الطريق الى الدولة :

والتشريع المـــكى — ومصـــدره الأول هـــو القرآن — كان تركيزه الأساسى على أصول العقيدة والدعوة الى وحـــدانية الله وهجر عبـــادة الأصنام والتأمل فى خلق الله ومظاهر عظمته وقـــدرته واستثارة الحس والشعور والوجـــدان الفطرى ، مع التذكير بأخبار الأنبياء والأمم السابقة للاتعاظ والاعتبار(١٠) . وفى الفترة المكية وعلى مدى ثلاثة عشر عاما وجدت نواة المجتمع الاسلامى ، وتقررت قواعـــد الاسلام الأساسية بصفة عامة(١١) .

(٩) سيرة ابن هشام ٣٧٠/١ .
(١٠) أنظر فى تفصيل ذلك : مناع القطان : التشريع والفقه فى الاسلام ٤٣ – ٥١ .
(١١) د. ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الاسلامية ٢٥ .

ومضى على الدعــوة الوليدة عقــد من الزمان بلغ عــدد المسلمين فيه مئات ولكن الايذاء اشتد بهم بعــد موت خـديجة وعبد المطلب وبلغ العناد بقريش اقصى مداه ، ودابت على ايذاء المسلمين واشتدوا فى هــذا الايذاء ... وارادوا أن يصعدوا من مسلكهم بضرب الاسلام فى شخصية النبى بالتخلص منــــه .

وأدرك النبى ــ عليه السلام ــ أن تربة مكة لم تعــد تسمح للنبت الجــديد بأن يجود ويترعرع ، فبدأ بنظره يخترق حــدود مكة ... وبدأ يتجه بنظره الى المدينة فكانت الهجرة .. وقبل الهجرة كان هناك مع أهلها لقاءات ثلاثة كل منها مورق مثمر :

اللقاء الأول : حينما كان النبى يعرض نفسه على القبائل فى الموسم بعــد أن اشتد عليه أذى الكفار واستهزائهم به بعــد الاسراء والمعراج .. وكان يقول وهـــو يعرض نفسه على القبائل ــ وهـــو اول تطلع الى الخروج بالدعوة من مكة الى مجتمع آخر : **من رجل يحملنى الى قــومه فيمنعنى حتى أبلغ رسالة ربى فان قريشا قــد منعونى ان أبلغ رسالة ربى ؟**

هــذا وعمه أبو لهب وراءه يقــول للنـــاس : لا تسمعوا منه فانه كــذاب(١٢) .

ثم كان لقاؤه فى هــذا الموسم مع جماعة من الخزرج : عرض عليهم الاسلام ، وقرأ عليهم القرآن ... وأسلموا وقالوا « انا قــد تركنا قومنا ولا قــوم بينهم من العــداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هــذا الدين ، فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك »(١٣) .

---

(١٢) امتاع الأسماع ٣١ .

(١٣) سيرة ابن هشام ٢٩/٢ .

وكانوا ستة انصرفوا عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — راجعين الى بلادهم ، وقــد آمنوا وصــدقوا .

اللقاء الثانى : وهــو ما يعرف فى التاريخ ببيعة العقبة الأولى(١٤) وحضرها من الأنصار اثنا عشر رجلا بايعوا النبى — عليه السلام — على الا يشركوا بالله شيئا ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه من بين ايديهم وأرجلهم ، ولا يعصوه فى معروف . وبعث معهم النبى — عليه السلام — مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفقههم فى الدين(١٥) .

اللقاء الثالث : وكان مع النبى — صلى الله عليه وسلم — فى الموسم الثالث . وكان عــدد الانصار ثلاثة وسبعين رجلا وامراتين بايعوه على أن يمنعوه وأهله مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وأولادهم ، وعليهم أن يحاربوا معه الأسود والأحمر ، وأن ينصروه على القريب والبعيد . وشرط لهم الوفاء بذلك والجنــة(١٦) .

وكانت كل هذه البيعات تتم شفاهة ولم ينقل فيها نص مكتوب .

وأهم ما يميز العهد المكى مما يتعلق بموضوعنا :

١ — انه كان عهد التأسيس العقدى والخلقى بعيدا عن التفصيلات والتفريعــات .

٢ — أن العلاقات بين الداعية وهــو رسول الله — صلى الله عليــه وسلم — وغيره كانت — فى اغلبها الأعم — لا تخرج عن النطاق المحلى .

---

(١٤) يطلق الدكتور حميد الله على هــذه البيعة بيعة العقبة الثانية اما اللقــاء السابق فهو بيعة العقبة الأولى ٠ [الوثائق السياسية ٢٨ — ٢٩] ٠

(١٥) سيرة ابن هشام ٣٢/٢ ٠

(١٦) أنظر : حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ٣٢ ٠ وانظر تفصيل البيعة فى ابن هشام ٣٧/٢ — ٤٦ ٠

٣ — ان العهود أو البيعات كانت شفوية لا تخضع لتقليد شكلى أو فنى معين وكانت تتسم بالايجاز ووضوح المضمون وتحــديده .

٤ — أن كل اولئك كانت تمهيدا طبيعيا لخطوة كبرى هى خطوة تكوين الدولة الاسلامية فى يثرب وكانت الهجرة فى وقتها المناسب الى مكانها المناسب المنشـــود .

* * *

فى المدينة : دولة الاسلام

والهجرة هــذه المرة تختلف عن هجرة المسلمين الى الحبشة من عــدة وجــوه .. اذ كانت الهجرة الى الحبشة هــدفها الأساسى البعــد عن مكة ارض الظلم والاضطهاد والتعــذيب والجبرية بحثــا عن الأمان والســلامة الذاتية . أما هجرة النبى — عليه السلام — الى مكة فلم تكن فرارا من أجل حماية النفس وان كان الحفاظ على الحياة وسلامة النفس مما يدعو اليــه الدين . ولكن الهجرة كانت لهــدف أساسى هــو « نشر الدعوة وتوســيع دائرتها » . . . لقــد أصبحت تربة مكة قاحلة شمطاء .. ترفض البــذر ولا تقبل المــاء . . . وتحاول أن تخنق كل عــود أخضر وتمتص كل نبــات جــديد . . . نعم لابد من تربة جــديدة . . . ومعاناة جــديدة وعمل متواصل حتى تؤتى الدعوة ثمارها.

وكانت الهجرة الى ما « هــو اصلح » ، ولكنها لم تكن الى ما « هــو أسهل » . . . وآثر النبى أن يتحمل مزيدا من الأثقال والأعباء فى سبيل الوصول الى نتائج مثمرة . ومن يستعرض التاريخ يكتشف عجبا . يكتشف ان محمدا — عليه السلام — كان فى مكة يواجه عــدوا واحــدا يتمثل فى الكفار . ولكنه فى المدينة أصبح يواجه اعــداء متعــددين وجبهات متعــددة .

هنـــاك المنافقـــون وعلى رأسـهم عبد الله بن أبى بن سلول الذى عاش طيلة حياته يغلى قلبه بالحقـــد ، وتفـــور نفسه بالنقمة لأن ذلك الوافـــد الجـــديد سحب « الأرض من تحت رجليه » و « حرمه تاج الملك » وكان قاب قوسين منه أو أدنى .

وهناك اليهود : خيبر وبنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع ... قبائل غنية منيعة تبحث عن « أمجاد مدفونة » وكانت تطمع أن يمالئها النبى الجـــديد .. ولكن خاب فألهم . وبدأت عيون الروم والفرس تتجه نحـــو المدينة ، وترصـــد خطوات هـــذا الوافـــد الجـــديد الذى غير موازين القوى وموازين العقيدة فى المنطقة .

أما قريش فما زالت على عـــدائها ، بل ان حقـــدها ازداد تضرما . وغضبها ازداد تسعرا ، فقـــد عز عليها ن يفلت من قبضتها محمد ومن معـــه من المستضعفين .

نعم خرج محمد الى « الأصلح والقابل » ولكنـــه « الأعتى والأصعب » وهـــذا هـــو الفصيل الحاسم بين « الهجرة » بمفهومها التشريعى الانسانى ، والفرار بمفهومه المفزوع المهزوم ..

وفى المدينة انشأ محمد ـــ عليه السلام ـــ دولة بكل ما يتطلبه مفهوم الدولة ـــ لا بالمعايير القـــديمة ـــ ولكن بما يشترطه القانون الدولى والفقـــه الدستورى الحـــديث فى وقتنا الحاضر . وهو حكم لا اسراف فيه ولا شطط .

دولة المدينة وطبيعتها :

لم يكن فى جزيرة العرب قبل البعثة دولة واحـــدة تجمع شتاتها وكيانها تحت حكم واحـــد وربما كان هـــذا التفرق هـــو السبب فى استعباد دولتى الفرس والروم للعرب طيلة قرون سبقت مجىء الاسلام .

كانت مدن الحجــاز تستقل كــل واحــدة منها بنفسها ، ولا تعرف لغيرها سلطانا عليها ، كان ذلك شأن مكة وشأن المدينة وشأن الطائف ، كان لكل واحــدة من هــذه المدن استقلالها ونظامها ، وكان الحكم فيهــا متأثرا بالعوامل التاريخية التى تعاقبت عليها ، فكانت السلطة فى المدينة مثلا موضع تنازع دائم بين الأوس والخزرج واليهود ... أما مكة فقــد تقاسمت الأسر الكبيرة فيها شئونها العامة ، كانت أمور الكعبة لبنى هاشم ، وكانت أمور الحرب لبنى مخزوم ، وكانت الديات والمغارم لبنى تيم وهلم جــرا ...

وكان الخلاف فى مبدأ الحكم بين شمال شبه الجزيرة وجنوبها أشــد منه بين مدن الحجاز ، كانت اليمن قــد اندمجت فى وحــدة سياسية قبــل البعثة بزمن غير قليل : وترجــع وحــدة اليمــن السياسية الى اعتبارات اقتصادية تقتضى خضوعها لنظام مشترك كنظام اليمن ، أما فى اليمن فقــد قضت المصالح الاقتصادية المشتركة كقيام سد مأرب بأن توضع قواعــد عامة للحكم يحترمها أهل البيئة جميعا .. ثم ان اليمن خضعت فى عهــود كثيرة الأطوار سياسية لم يعرفها الحجاز : عــدت الحبشة ، وعــدت فارس على استقلال اليمن ، وأقامت فيها حاكما تخضع جميع أنحائها لسلطانه . كان طبيعيا ازاء هــذه الاعتبارات أن يقوم فى أنحاء اليمن كلها على قاعــدة معترف بها من أهلها جميعا ، ينفــذها الحاكم بقــوة القانون ان لم ينفذها الناس عن رضا واختيار .

ونظام القبائل فى البادية لم يكن يتفق ونظام الحضر فى اليمن أو فى الحجاز ، بل كان الغزو والسلب تحت امرة رئيس القبيلة أساس الحيــاة عند البدو ، وكان رئيس القبيلة هــو القاضى ، وهــو القائد الأعلى ، وهــو الذى يصرف شئون القبيلة ما جل منها وما دق . وطبيعى أن يستند مثــل هــذا النظام الى شخصية رئيس القبيلة وان يتأثر بمنطقه وحكمته(١٧) .

(١٧) انظر د. محمد حسين هيكل : الحكومة الاسلامية ٣١ – ٣٢ ، وانظر فى تفصيل ذلك الكتاب الأول من موسوعة التاريخ الاسلامى للدكتور أحمد شلبى ٩٠ – ١٢٧ .

فماذا فعل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد وصل الى المدينة مهاجرا ؟ لقد بدأ فى تكوين دولة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .
والدولة بالمفهوم الحديث **جمع من الناس ، من الجنسين معا ، يعيش على سبيل الاستقرار على اقليم معين محدود ، ويدين بالولاء لسلطة حاكمة لها السيادة على الاقليم وعلى أفراد هذا الجمع**(١٨) .

وقد نصت المادة الأولى من الاتفاقية الخاصة بحقوق الدول وواجباتها التى عقدتها الدول الأمريكية فى مونتفيديو فى ٢٦ من ديسمبر سنة ٩٣٣ على ما يأتى :

« يجب لكى تعتبر الدول شخصا من أشخاص القانون الدولى أن تتوافر فيه الشروط التالية :

١ — شعب دائم .

٢ — اقليم محدود .

٣ — حكومة .

٤ — أهلية الدخول فى علاقات مع الدول الأخرى(١٩) .

ودون اسراف أو تمحل نستطيع أن نقول أن المجتمع الذى استقر على ارض المدينة كان بوجود النبى — صلى الله عليه وسلم — وعلى مدى عشر سنوات — يمثل بكل معنى الكلمة دولة متكاملة توفرت لها كل الشرائط والأركان السابقة :

— فالمدينة رقعة من الأرض .. أو اقليم له حدوده المميزة المعروفة عند سكانها وغيرهم .

---

(١٨) د. حامد سلطان : القانون الدولى العام فى وقت السلم ٣٤٣ .
(١٩) السابق ٣٤٥ .

— والشعب هو « الشعب المسلم » ... الذى كان قوامه الأوس والخزرج أو الأنصار الذين فتحوا صدورهم وقلوبهم للدين الجديد ، والمهاجرون الذين تركوا أموالهم وديارهم من أجل عقيدتهم . وقد جمع النبى — عليه السلام — بين هذه العناصر وصهرها فى بوتقة واحدة ، فربطت بينهم قيم الحب والايثار والاخاء . « وبهذه الألوان من التكافل والمشاركة يتحقق لمجتمع الاسلام ايجابية تجعله بتعبير الرسول — عليه السلام — كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، ويتحقق له قوة التماسك بحيث يصير « كالبنيان يشد بعضه بعضا » والايجابية والتماسك ميزتان ضخمتان لا تتوافر لكثير من المجتمعات »[٢٠] .

— أما الحكومة فهى حكومة الرسول التى اعتمدت فى الحكم على ركيزتين صلبتين العدل والشورى .

— وكل أولئك جعل لهذه الدولة الجديدة أهلية كاملة فى التعامل كشخصية اعتبارية مع الآخرين .

* * *

البواعث والبدايات

وبوجود هذا الكيان الشرعى الجديد وهو الدولة الاسلامية وجدت مجموعة من العلاقات بعضها جديد لم يكن له وجود من قبل وبعضها كان له أصوله السابقة .

فمن العلاقات القديمة : علاقة النبى — صلى الله عليه وسلم — ومجتمع الكفار فى مكة وما حولها وان كانت هذه العلاقة قد تطورت

(٢٠) د. على جريشة : المشروعية الاسلامية العليا ٢٣٨ .

بالهجرة فتحولت من علاقة بين مجتمع كافر و « شخصية تحمل رسالة » وتتعرض للاضطهاد الى علاقة مرت بالمراحل الآتية :

١ — علاقة بين المجتمع المكى ومجتمع المدينة الذى لم تعترف قريش بمشروعية قيامه تحت قيادة محمد .

٢ — علاقة بين المجتمع المكى و « دولة » على رأسها محمد — عليه السلام — اعترفت بها قريش اعترافا ضمنيا بصلح الحديبية .

٣ — علاقة بين المجتمع المكى والدولة الجديدة مع الاعتراف الصريح بمشروعية هذه الدولة وانضمام سكان مكة الى « جماعة المسلمين » أو الى الشعب المسلم ، فصاروا أعضاء وخلايا فى هذا الجسد الواحد الذى اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

ومن العلاقات الجديدة : علاقة الدولة الناشئة بالعناصر الدينية الأخرى مثل اليهود وهم عدة قبائل أو تجمعات حول المدينة لها قلاعها ومزارعها وتجاراتها وذهبها وأموالها .

ومن هذه العلاقات الجديدة كذلك علاقة السلطة وعلى رأسها الرسول — عليه السلام — بطائفة لم يكن لها نظير فى مكة وهى طائفة المنافقين التى كان على رأسها عبد الله بن أبى بن سلول . ومنها علاقة الدولة الجديدة بالعالم الخارجى متمثلا فى حكامه وملوكه وشعوبه فى مصر والشام وفارس والروم .

هذه العلاقات المختلفة كان لزاما على الدولة الناشئة أن تحددها وتكيفها تبعا لاعتبارات مصلحية انسانية تتعلق بالدين والدولة والقيم والأخلاقيات الجديدة . واعتمد منطق هذه العلاقات على ركيزتين أساسيتين :

الركيزة الأولى : مستمدة من قوله تعالى « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى احسن ان ربك هـو أعلم بمن ضـل عن سبيله وهـو أعلم بالمهتدين** »(٢١) .

الركيزة الثانية : وهى مستمدة من قوله تعـالى « **اذن للذين يقاتلـون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقـدير** »(٢٢) .

والركيزة الأولى تمثل . الاصل الأصيل فى قائمة المبادىء الاسلامية : الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجـدال الشريف الحر بالتى هى أحسن ، دون اكراه فى الدين ، وتهر فى العقيدة .

فاذا لم يأت الأسلوب الأول بالنتيجة المثمرة فالحرب هى الدواء المـر الذى لا منجى منه ولا هروب ، على حـد قول الشاعر :

والنـاس ان ظلموا البرهان واعتسفوا

فالحرب أجـدى على الدنيا من السلم

وقـد بدأت حروب النبى — صلى الله عليه وسلم — فى السنة الثانية من هجرته من مكة الى المدينة المنورة ، فقاد الرسول القائد — عليه الصلاة والسلام — ثمانى وعشرين غزوة وبعث وسبعا وأربعين سرية ، وكان من جملة ثمرات الغزوات والسرايا توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لـواء الاسـلام(٢٣) .

كل هـذه العلاقات — الجـديد منها وما كان له جـذور وأصول قـديمة فى حالتى السلم والحرب — كانت « الكتابة » فى شكل رسائل وعهود

(٢١) النحل ١٢٥ (وهى سورة مكية) .

(٢٢) الحج ٣٩ (وهى مدنية) .

(٢٣) محمود شيت خطاب : العسكرية العربية الاسلامية ٣٢ .

والفرق بين الغزوه والسرية أن الغزوة يقودها النبى - صلى الله عليه وسلم - والسرية يقودها احد قادته .

وتوصيات ومعاهدات وسيلة من وسائل تحـــديدها أو تطويرها . وكانت الكتابة وسيلة لانشاء حقوق جـــديدة ، أو انهاء التزامات قـــديمة قبل الدولة لجماعة أو أفراد ، وكانت وسيلة كذلك لقطع أو انهـــاء مثل هـــذه العلاقات . وفى خلاصة مركزة كان وجـــود الدولة الجـــديدة ونموها المتزايد ومتطلبات هـــذا الوجـــود ومستلزمات هـــذا التطور سلما وحربا ... كل أولئك يمثل **البواعث والدوافع الحقيقية لانشاء الرسائل والكتب والعهـــود** وخصوصا ما يسمى بالرسائل العامة أو الديوانية(٢٤) .

فنجاح محمد — عليه السلام — فى الهجرة دفع قريشا الى أن تكتب الى عبد الله بن أبى سلول ومن معه من المنافقين يحرضونهم فيه على قتال محمد والا فان قريشا ستزحف اليهم لتقاتلهم ولكن هـــذا الكتاب لم يأت بالثمرة المرجـــوة ، فاتجهت قريش الى اليهـــود لنفس الغرض وكتبوا اليهم **« انكم أهـــل الحلقة والحصون ، وانكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كـــذا وكذا ، ولا يحـــول بيننا وبين خـــدم نسائكم شىء »(٢٥)** .

واقتضى حرص النبى — عليه السلام — على ترسيخ قواعـــد الدولة المركزية الجـــديدة الى تنظيم العلاقات التى تربط بين الدولة وبين قبائل اليهود المختلفة فكتب عهـــدا مفصلا بينه وبين اليهود ولعله أول كتاب تنظيمى كتبه النبى — عليه السلام — بعـــد وصوله الى المدينة .

والحرب النفسية كانت باعثا وراء كثير من الكتب وتدور حـــول فكرة أساسية هى التهـــديد والحـــديث عن القوة الذاتية والقـــدرة على تحقيق النصر واستئصال العـــدو ككتاب أبى سفيان الى الرسول وقت الخنـــدق .

---

(٢٤) هى الرسائل التى يكون اطرافها شخصيات عامة من خلفـاء وامراء وقـواد على ان يكون موضوعها عاما يتعلق بأمر من أمور الدولة او هيئة او جماعة عامة كسياسة الحرب والسلام والتملك والتولية والعزل ورسم الخطط والتملك والاقطاع ... الخ .

(٢٥) حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ٤٨ .

وهناك كتب العيون أو التجسس ككتاب العباس بن عبد المطلب الى النبى — صلى الله عليه وسلم — يخبره فيه باستعداد قريش للزحف الى قتاله بعد فجيعتها فى بدر . وكذلك كتاب حاطب بن أبى بلتعة الى قريش يخبرها فيه بأن النبى — عليه السلام — يسير لضربها وفتح مكة .

وهناك كتب الصلح التى كان وراءها الحرص على السلام والاستقرار ، ومن أشهرها صلح الحديبية .

ثم هناك كان الباعث الأكبر وهو حرص النبى — صلى الله عليه وسلم — على نشر الدعوة لا فى بقية الجزيرة العربية فحسب بل خارج حدود الجزيرة ، فكانت كتبه للملوك والحكام وبعض القادة الدينيين مثل كسرى أبرويز والمنذر بن ساوى عامله على البحرين والمقوقس عظيم القبط فى مصر وغيرهم .

وهناك كتب الاقطاع والهبات — ان صح هذا التعبير ... وهى كتب تسجل حقوقا لبعض الجماعات أو القبائل قبل الدولة ، ككتاب النبى — عليه السلام — « للداريين » وفيه يقطعهم قرية عينون وبيت حبرون والمرطوم وبيت ابراهيم .... » .

وقد يرتب الكتاب حقا لشخص بعينه على سبيل الحصر ككتاب الأمان الذى منحه لسراقة بن مالك قبل الهجرة وهو يلاحقه هو وصاحبه أبو بكر لردهما الى قريش . وفيه بعده بسوارى كسرى بن هرمز .

وهناك الكتب التشريعية التى يفصل فيها الشارع — وهو رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كثيرا من قواعد الدين وأركانه وخصوصا الزكاة كما نرى فى كتابه الى ملوك حمير .

ولكن هناك من الرسائل ما كان وراءه « الباعث الانسانى البحت » بعيداً عن أمور الدولة ومصالح الجماعات والأفراد ، ومن أرقاها كتاب النبى — صلى الله عليه وسلم — الى معاذ بن جبل — وهو واليه باليمن — يعزيه فى ابن مات له ، وهى من أعمر الرسائل بالايمان والتعاطف وصدق المشاركة الوجدانية بين الانسان القائد وأحد ولاته الذين كان يحبهم ويعتز بهم[٢٦] .

* * *

والخلاصة ان الكتب فى عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — واغلبها للرسول عليه السلام — كان وراءها أو الدافع الأول اليها هو « **وجود الدولة** » ونموها ، ونشوء عدد من العلاقات الجديدة بين الدولة الجديدة والمجتمعات الأخرى . وبين الدولة كشخصية أعتبارية والأفراد كشخصيات طبيعية[٢٧] . كما كان هناك بواعث انسانية وراء بعض هذه الرسائل مما سنفصل فيه القول فى الفصل الثالث الذى يعرض لأنواع الرسائل ووجهاتها وموضوعاتها ومضامينها .

(٢٦) والرسالة تعتبر رسالة خاصة أو شخصية على الرغم من أن طرفيها شخصيتان عامتان وذلك لأن محورها الموضوعى أمر خاص هو التعزية فى وفاة .

(٢٧) يفرق رجال القانون بين الشخص الطبيعى والشخص الاعتبارى ويعرفون الأول بأنه من يصلح لاكتساب الحقوق وتحمل الواجبات ، وتثبت الشخصية لكل انسان بوصفه هذا . ويبدأ الشخص الطبيعى أو بعبارة أخرى تبدأ الشخصية بتوافر شرطين الولادة والحياة . أما الشخص المعنوى أو الاعتبارى فيعنى « مجموعات من بنى الانسان اجتمعوا سويا ابتغاء تحقيق غاية معينة بحيث تكون منهم وحدة لها وجود مالى أو سياسى مستقل عن وجود كل واحد منهم .... » والقانون يعتبر « الدولة » شخصية معنوية عامة ، أما فروعها ومؤسساتها فشخصيات معنوية خاصة [أنظر : د. عبد الحى حجازى : نظرية الحق ص ٩٤ – ٩٧ ، ص ١٥٤ – ١٥٧] .

الفصل الثالث

الموضوعات والمضامين

(١) المعاهدات وكتب الصلح
بين المسلمين واليهود[١]

كانت بيعتا العقبة — وقد سبقهما لقاء عابر بين النبى — صلى الله عليه وسلم — والأنصار — تمهيدا طبيعيا لهجرة موفقة الى المجتمع الجديد . ولا شك أن هاتين البيعتين ألقتا لونا من الطمأنينة فى قلوب المسلمين المستضعفين فى الأرض .

ولكن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان يدرك ببصيرته الواعية أن ما بين الأوس والخزرج من ثئور واحن ، وما سينشأ عن الوضع الجديد من نشوء جبهة موتورة هى جبهة المنافقين على رأسها عبد الله بن أبى بن سلول ، وأن التجمعات اليهودية فى المنطقة لن تستريح لهذه الأوضاع الجديدة التى يحتمل أن تضعف من كيانها السياسى والاجتماعى وتهز ثقة الأوس والخزرج فيها . وهو يعلم أن اليهود كانوا يهددون به اهل

---

(١) ننبه ابتداء الى أننا فى حديثنا عن الكتب والعهود والرسائل فى هذا الفصل سيكون تركيزنا الأساسى على ما تحويه من فكر ومبادىء وقيم دينية وسياسية واجتماعية فى ضوء الظروف والأحوال التى نشأت فيها ، والبواعث التى أدت الى انشائها ، وما ترتبه من حقوق وواجبات ، ودلالة كل أولئك على شخصية أطرافها وقدراتهم النفسية والعقلية والسياسية مرجئين الحديث عن الخصائص الفنية عن هذه الكتب والرسائل الى الفصل التالى كما أعلنا من قبل .

المدينة ، ويوهمونهم انه نبى من انبيائهم وأنهم ستكون لهم السيادة على المنطقة به :

قال ابن اسحق :

ان يهود كانوا معهم (أهــل المدينة) فى بلادهم ، وكانوا أهــل كتاب وعلم ، وكانوا أهــل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قــد عزوهم[٢] ببلادهم ، فكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا لهم : ان نبيا مبعوث الآن ، قــد اظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم .... »[٣] .

وأتت هذه المقولة التى ما فتىء اليهود يرددونها بعكس ما رجاه اليهود ، فقــد كانت هى الحافز الأكبر لاسلام عــدد من الأنصار فى أول لقــاء بينهم وبين النبى ، فقــد قال بعضهم لبعض عندما عرض النبى نفسه عليهم فى الموسم « يا قــوم انه النبى الذى توعــدكم به يهــــود فــلا يسبقنكم اليه .. فاستجابوا لله ولرسوله وآمنوا وصــدقوا »[٤] .

فمجىء النبى الى المدينة وفهم الأنصار لحقيقته وحقيقة دعوته « ابطل حجة اليهود » أو « حرق الورقة » التى ظلوا يلوحون بها للأنصار ويهددونهم بها عشرات من السنين .

وثمة حقيقه أخرى اشرنا اليها من قبل وهى ان قريشا لم ترد للمجتمع الجــديد أن يستقر ، ولمحمد ان يكون له المقام الهادىء فى المجتمع الجــديد ، فبدءوا بكتب اشرنا الى أحــدها تمزج بين الوعــد والوعيد يؤلبون فيها الأنصار واليهود على النبى وصحبه .

والخلاصة أن النبى ـــ عليه السلام ـــ هاجر الى المدينة واستقر بها ،

---

(٢) عزوهم : غلبــوهم .
(٣) سيرة ابن هشام ٢٢/٢٩ .
(٤) امتاع الأسماع ٣٢ .

وأصبح قوام المجتمع او القوى الاجتماعية فى المدينة تتمثل فى الجماعات الآتية :

١ ــ المهاجرون من المسلمين واغلبهم خرج من مكة خالى الوفاض ليس معه صامت او ناطق ، بعد أن تسللوا من مكة الى المدينة خفية خوفا من بطش قريش ٠

٢ ــ الأوس والخزرج الذين عرفوا تاريخيا بالأنصار ٠

٣ ــ المشركون المدنيون من الأوس والخزرج وهؤلاء هم الذين بقوا على شركهم ٠

٤ ــ المنافقون وعلى راسهم ابن سلول ٠

٥ ــ اليهود بقبائلهم المختلفة(٥) وكانوا كما قلنا أهل ثراء يثمرون أموالهم بالربا ويصنعون السلاح ويبيعونه للعرب الذين لا تنتهى حروبهم وكانت أكثر الأراضى والبساتين بأيديهم(٦) ٠

---

(٥) كان بنو قينقاع يقيمون داخل المدينة ، ويقيم بنو قريظة فى فدك ، وبنو النضير على مقربة منها ، ويهود خيبر فى شمالها [حياة محمد ٢٣٦] ٠ والثابت تاريخيا أن اليهود فى هذه المنطقة ليس لهم اى اصالة جنسية أو مكانية فى هذه المنطقة فهم « يهود تعربوا وليسوا عربا تهودوا » ـ ان صح هذا التعبير ٠ يقول ر٠ ف٠ بودلى فى كتابه : الرسول ٠ حياة محمد ص ١٤٨ « لقد كان اليهود منذ ازمان سحيقة عرضة دائما للطرد من وطنهم (فلسطين) الذى استولوا عليه اصلا بالقوة ، ولنذكر بعض الذين طردوهم ، فهناك سرجون الثانى سنة ٧٢٢ ق٠م ، وبختنصر سنة ٥٨٦ ق٠م ، وبومباى سنة ٦٣ ق٠م ، وطيطس سنة ٧٠ ميلادية ، وطردهم هارديان طردا نهائيا سنة ١٣٥ م ٠٠٠٠ فكلما وقع اضطهاد لليهود رحل المضطهدون الى ممالك اخرى ، وقد تغلغل كثير منهم فى جزيرة العرب ، فبعد أن نهب طيطس بيت المقدس استولت ثلاث قبائل قوية على المدينة أو يثرب كما كانت تسمى ٠ تلك القبائل هى بنو قينقاع ، وبنو قريظة ، وبنو النضير ، وحولوها الى معقل زراعى ٠٠٠٠ » ٠

(٦) د٠ أحمد شلبى : الكتاب الأول من موسوعة التاريخ الاسلامى ٧٥ ٠

أما القوى الخارجية فتمثلت فى القوى الآتية :

١ ــ مشركو الجزيرة العربية بعامة ومشركو قريش بخاصة وقــد بدءوا يحرضون عليه قــوى الأوس والخزرج واليهود .

٢ ــ قــوى الفرس والروم وقــد بدأ اسم النبى الجــديد يتسرب ويتردد عبر القبائل التى كانت تدين لهاتين الدولتين بالبيعة .

* * *

كان النبى على وعى كامل بحقيقة هــذا الوضع .. ومن ثم كانت المجابهة المسلحة المباشرة والفورية لأية قــوة من هــذه القــوى لا تخطر له فى بداية وجــوده فى المدينة لعــدة اسباب هى :

السبب الأول : يتلخص فى أن المسلمين كانوا يعيشون « دور النقاهة » الاجتماعية بعــد التعــذيب والمطاردات والاضطهادات فمن الناحية الواقعية لم يكن وضعهم فى الشهور الأولى يؤهلهم لمجابهة واسعة . فكانوا فى حاجة الى فترة يلتقطون فيها انفاسهم ، ويلمون فيها شعثهم ، ويستعيدون فيها قــوتهم .

والسبب الثانى : أن القتال لم يكن قــد شرع بعــد[٧] ، فلم يؤذن

---

(٧) كان قــوله تعالى « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقــدير » الحج ٣٩ أول ايحاء بمشروعية القتال .. ويقال أن سبب نزولها كما يروى عن ابن عباس أنها نزلت فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة اذ قال أبو بكر أخرجوا نبيهم انا لله وانا اليه راجعون ليهلكن . فانزل الله عز وجل « أذن للذين .... » قال أبو بكر فعرفت أنه سيكون قتال . وزاد أحمد : وهى أول آية نزلت فى القتال [السيوطى : أسباب النزول ١٢٠ ـ القرطبى ٤٤٥٩/٥ ـ مختصر تفسير ابن كثير ٥٤٧/٢] . وننبه هنا الى أن سورة البقرة هى اول السور بالمدينة نزولا باتفاق اما سورة الحج فهى السابعة عشرة فى الترتيب النزولى بالمدينة . والآية ٢١٦ فى سورة البقرة (كتب عليكم القتال ....) أول آية نزلت بفرض القتال . وهــذا الترتيب النزولى يقتضى فى الظاهر أن تكون فرضية القتال قــد نزلت قبــل « الاذن به » وهــذا ما لا يقبله العقل ويناقض طبيعة الاسلام ومنهجه التشريعى فى التدرج . لذلك نرجح أن آية الحج فى الاذن بالقتال والآيتين التاليتين لهــا قــد نزلت على النبى وهــو فى طريقه من مكة الى المدينة مهاجرا أو بعــد استقراره بالمدينة وقبل نزول سورة البقرة وهى أول سورة مدنية كما ذكرنا آنفا .

للمسلمين بالقتـــال طيـــلة بقـــائهم فى مكة[8] ، ثم نزلت آية الحـــج « **اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقـــدير** » فهى على اليقين لم تنزل فى مكة ، انما هى مدنية ، أو على الأقل نزلت والنبى فى طريقه الى المدينة . والمقطوع به انها نزلت قبل اول لواء عقـــده الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، وكان ذلك على رأس سبعة أشهر من مقدمة بالمدينة[9] .

وعبارات المؤرخين تدل على أن « معاهـــدة الصداقة والموادعة » عقدت قبل الاذن بالقتال وكانت بالتأكيد قبـــل أول سرية بعث بها النبى أى فى الأشهر الأولى من وصول النبى الى المدينة[10] .

وحتى على فرض نزول الاذن بالقتال قبلها فالقوم لم يظهر منهم ابتداء ما يوجب قتال النبى لهم . وبذلك يثبت الرسول بصورة عملية أن السلام هـــو الأصل فى الاسلام .

أما السبب الثالث : فهو أن النبى — صلى الله عليه وسلم — أراد أن يثبت لهـــذه القـــوى جميعا أن الحرب ليست هـــدفا فى ذاتها ، وأن هدفه الأول هـــو اقرار السلام والقيم الانسانية « فكان أول ما انصرف اليه تفكيره تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحـــدتهم للقضاء على كل شبهة فى أن تثور

---

(٨) يقطع بذلك ما كان بعد بيعة العقبة الأولى (قبل الأخيرة) من قول العباس بن عبادة احـد الانصار المبايعين - والله الذى بعثك بالحق أن شئت لنميلن على اهل منى غـدا باسيافنا فرفض الرسول صلى الله عليه وسلم - قائلا لم نؤمر بذلك [ابن هشام ٤٤/٢] . هذا وقد رد ابن القيم بحجج دامغة على من ذهب - وهو مذهب شاذ - الى أن آية الاذن بالقتال مكية وكذلك سورة الحج [أنظر زاد المعاد ٥٨/٢] .

(٩) كان قائد السرية عمه حمزه بن عبد المطلب على ثلاثين راكبا نصفهم من المهـــاجرين والنصف الثانى من الأنصار فبلغوا سيف البحر يعترضون عيرا لقيش قـد جاءت من الشام تريد مكة ، فيها ابو جهل فى ثلاثمائة راكب ، ولكن لم يقع قتال لتوسط مجـدى بن عمرو الجهنى بين الفريقين [أنظر امتاع الأسماع ٥١] .

(١٠) يدل على ذلك عبارات المؤرخين مثل ما جاء فى امتاع الأسماع ... لما قـدم (النبى عليه السلام) المدينة مهاجرا وادعته يهود كلها وكتب بينه وبينهم كتابا ... الخ [ص ١٠٤] .

العـداوة القـديمة بينهم ، ولتحقيق هـذه الغاية دعا المسلمين ليتآخوا فى الله أخـوين أخـوين »(١١) .

وقـد اطمأن محمد الى وحـدة المسلمين بهـذه المواخاة وهى ولا ريب حكمة سياسية تدل على سلامة تقـدير وبعـد نظر متين مقـدارهما حين نقف على ما كان من محاولة المنافقين الوقيعـة بين الأوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لافساد أمرهم . لكن العمل السياسى الجليل حقا والذى يدل على اعظم الاقتدار ، وذلك ما وصل اليه من تحقيق وحـدة يثرب والى وضع نظامها السياسى بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتحالف(١٢) .

مبادىء سياسية وقيم اجتماعية :

وقـد تضمن الكتاب(١٣) كثيرا من المبادىء والقيم والحقوق السياسية والاجتماعية تتلخص فيما يأتى :

١ ــ ابقاء الحال على ما كانت عليه : وقـد استخدم الكتاب للتعبير عن هـذا المبدأ عبارة « **المهاجرون من قريش على ربعتهم(١٤) يتعاقلون(١٥) بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين** » ثم كرر العبارة ذاتها دون تغيير فى كلماتها فذكر كل أطراف المعاهدة تفصيلا مقترنين بهذا المبدأ « **وبنو عـوف على ربعتهم ....** » . **وبنو الحارث على ربعتهم ...** » وبنو ساعدة ... ، وبنو جشم ... ، وبنو النجار ... ، وبنو عمرو

---

(١١) حيـاة محمـد ٢٣٦ .

(١٢) السـابق ٢٣٨ .

(١٣) انظر نصه فى سيرة ابن هشام ٢/٨٨ ــ ٩١ .

(١٥) الربعة والرباعة (بفتح الراء) الشان والحال يريد انهم على امرهم الذين كانوا عليه من قبل من اداء العقول والديات وغيرها . والربعة أيضا قسمة البلدة فتشتمل على منازلهم ومسـاكنهم .

(١٥) المعاقل : الديات . والتعاقل هـو اعطاء المعاقل : ويقصد يكونون على ما كانوا عليه من أخـذ الديات واعطائها .

ابن عـــوف ... ، وبنو النبيت ... ، وبنو الأوس ... الخ • وابقـــاء الحال على ما كانت عليه — وقـــد عبر عنها الكتاب بقوله (على ربعتهم) فيما يتعلق بالمسكن والأرض والحقوق المكتسبة فى الجاهليـــة والارتباطات والعلاقات الاجتماعية والسياسية وما فى الذمم من حقوق وديون وديات ... الخ — مسألة حيوية وضرورية لاستقرار المجتمع الجـــديد حتى لو كان فى ذلك ما يتعارض مع الشريعة الاسلامية وما سيحرمه الاسلام فيما بعـــد كالربا مثلا ، وهـــذ االمنهج يتفادى الهزاهز التى يمكن ان تصيب المجتمع بسبب اجراء او تنظيم فجائى . وهـــو منهج يتفق مع فلسفة الاســـلام ومنهجه القيم فى التدريج التشريعى(١٦) .

كما نلاحظ ان الكتاب قـــد كرر العبارة بنصها تسع مرات بعـــدد البطون التى شملتها المعاهـــدة وكان من الممكن ادراجها كلها تحت عبارة واحـــدة بلا تكرار . ولكنى أعتقد ان هـــذا التكرار فى هـــذه المسألة يرجع الى سببين :

السبب الأول : أهمية المسألة وحيويتها بالنسبة للمجتمع .

السبب الثانى : تأكيدها وترسيخها ومنع التأويل والخروج بالنص عن المضمون الذى قصـــد اليه .

٢ — تقرير مبدأ الأخـــوة والتعاون بين المؤمنين : وعلى الرغم من أن الأخـــوة الدينية بين المسلمين هى — بالدرجة العليا — صلة روحية تشتمل على وحـــدة العقيدة الدينية الا أن العلماء المجتهدين فى عصور الاســـلام الأولى قـــد اعتبروها المعيار الحاسم فى تكوين الدولة الاسلامية ، والضابط الحتمى الذى يفصل بينها وبين غيرها من المجتمعات الانســـانية التى تدين

---

(١٦) أنظر جابر قميحة : المدخل الى القيم الاسلامية • الفصل الثانى من الكتاب (٤١ — ٩٥) وخصوصا الصفحات (٤٢ — ٥٦) •

بغير الاسلام . فالدولة الاسلامية فى تكوينها دولة متحـــدة على أساس أن حكم الاسلام يسودها ، وأن ولايته الشخصية تمتد الى الأمصار التى يعيش على أقاليمها البشر الذين تربط بينهم « الأخـــوة الدينية الاسلامية » . وهى لا شك تعـــد أول مثال للدولة المتحدة أو الدولة « الفيدرالية » .... ولمـــا كانت « الأخـــوة الدينية الاسلامية هى المعيار الحاسم فى تكوين الدولة الاسلامية فانه قـــد ترتب على ذلك ــ بحكم المنطق وبحكم الضرورة ــ ان تعتبر هـــذه الأخـــوة الدينية الضابط الذى يميز على مقتضاه بين الجماعة الاسلامية وغيرها من الجماعات الانسانية الأخرى التى لا تقوم فيها هـــذه الصلة الروحية[17] .

والأخـــوة الاسلامية هنا ليست مجرد شعور وشعار ، ولكنها كانت رابطة وثيقة تولد عنها التزامات متعـــددة نص الكتاب عليها خلاصتها :

(أ) تحمل دين المسلم والالتزامات المـــالية الأخرى .

(ب) التعاون على البر والتقوى ، ومواجهة البغى والاثم والعدوان .

(جـ) لا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وهم موالى بعضهم .

(د) لا ينصر المؤمن قاتلا أو مجرما أو يؤويه .

وهـــذه الالتزامات هى روح القاعـــدة التى يقوم عليها البناء السياسى فى الاسلام « وهى الأمة أو الجماعة وهى جماعة الأفراد الذين يرتبط بعضهم ببعض بروابط الدين ، وجميع أفراد هـــذه الأمة متساوون ، لا فرق بين كبير وصغير ، وانما يكون فى نوع العمل ، والله وحده رب هذه الجماعة وحاكمها ، وحكمه فيها مباشر بلا وساطة . ويحـــدد نظامها الداخلى ويؤمنه رضى أفرادها جميعا بأحكام الله وخضوعهم لها وطاعتهم لرأس الجماعة .. »[18] .

---

(١٧) د. حامد سلطان : أحكام القانون الدولى فى الشريعة الاسلامية ١٥٧ .
(١٨) شاخت وبوزورث : تراث الاسلام ٣٦ .

٣ ــ **الحرية الدينية** : وهى حرية العقيدة واقامة الشعائر دون الاضرار والاســاءة للغــير « **لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم مواليهم وانفسهم** » واستثنت المعاهــدة من هــؤلاء « **من ظلم واثم ، فانه لا يوتع**[19] **الا نفسه وأهــل بيته** » .

٤ **قيام التلاحم والتعاون بين المسلمين واليهود :**

وقــد عبرت المعاهــدة عن ذلك بعبارة « **أن يهود بنى عوف أمة مــع المؤمنين ....** » ولأهمية هــذا العنصر من عناصر هــذا الكتاب يأتى التفصيل أو ذكر الجماعات والبطون التى تتمتع بهــذا الحــق على نسق ما ذكر فى أول الكتــاب ... « **وأن ليهــود بنى النجار مثل ما ليهــود بنى عــوف . وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عــوف ... الخ** » .

وقــد نص النبى ــ عليه السلام ــ فى هــذا الكتاب على ما يقتضيه هــذا التلاحم أو ما يمكن أن نسميه بالتعبير الحــديث : « **وحــدة الأمة بكل عناصرها** » . وهى التزامات متبادلة وأهمها :

(أ) التزام اليهود بمعاونة المؤمنين فى حالة الحرب ، وذلك بالمــال والسلاح والمؤن ، اى ــ كما قال الكتاب ــ « **يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين** » وقــد كرر هــذا النص لأهميته مرتين .

(ب) مناصرة المسلمين لليهود ومواساتهم بكل السبل والوسائل الممكنة « **... وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا تناصر عليهم** »[20] .

٥ ــ **الجهــاد واجب على الجميع لا تنفرد به طائفــة دون طائفــة .** بل على الكل أن يساهم فى هــذا الواجب مناوبة .

٦ ــ **المؤمنون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدعى من ســـواهم .**

---

(١٩) يوتغ : يهلك .
(٢٠) الأسوة هنا بمعنى المواساة والمعالجة ، وواساه : عالجه .

٧ — القاتل يقتل الا اذا رضى ولى الدم بالعقل (الدية) .

٨ — لا تزر وازرة وزر أخرى « لا يأثم أمرؤ بحليفه ... » .

٩ — ضرورة رعاية حـق الجار .

١٠ — الشعور بالأمان حـق للجميع سواء أبقى الشخص بالمدينة ام خرج منها « الا من ظلم وأثم » .

١١ — « **على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم** » أى على كل مواطن ان يتحمل نصيبه الذى يلتزم به لصالح الجماعة .

١٢ — ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حـدث أو شتجار[٢١] يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله وان الله على اتقى ما فى هـذه الصحيفة وأبره » .

وهـذا النص الأخير يشير الى تلك الواقعة التى لا يوجـد فى النص ما يصـدق عليها او ما يعتقد الأطراف أو بعضهم أن ما ينص عليـه الكتاب لا يتسع لهـذه الواقعة ... وزيادة على « الواقعة » التى تثير النزاع .. يشير الى « جهة الاختصاص » التى لهـا الحكم النهائى فى هـذه الحـال وهـو ما يشـبه ما يسمى حـديثا فى القـانون المحلى والقـانون الدولى « بالاحالة » فى الحكم أو ما يسمى « بالتفويض » أو « بالاحالة الداخلية » وبمقتضاها يعين قانون الدولة من الشرائع المطبقة فيها شريعة يوجب تطبيقها بمقتضى قاعـدة من قواعـد تنظيم التنازع الداخلى ما بين القوانين[٢٢] .

وقـد نص الرسول — صلى الله عليه وسلم — على جهة « الاحالة » أو « التفويض » فى حالة وقوع حـدث أو خلاف « يخاف فساده » وجهـة

---

(٢١) تنـازع وخـلاف .

(٢٢) اقرأ شرح نظرية الاحالة والفرق بين الاحالة والتفويض والسور المختلفة لهما كتاب « تنازع القوانين » للدكتور جابر جاد عبد الرحمن ٦١٣ — ٦١٧ .

واقرأ فى قواعـد تفسير النصوص القانونية عند الخلاف بين الأطراف وتطبيقات ونمـاذج لهـا . د. سلطان : القانون الدولى العام فى وقت السلم ٧٨ — ٨٢ .

الاختصاص هنا هى (الله ورسوله) أى القرآن والسنة بأنواعها المختلفة[23] والأمر لا صعوبة فيه وخصوصا ان صاحب التشريع — وهو رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حى يسعى بالهداية بين الناس . وقد تبلورت هذه القاعدة فى قوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا** »[24] .

* * *

وأهم السمات الموضوعية التى نسجلها لهذا الكتاب :

١ — **الشمولية :** فهو لم يأخذ اتجاها واحدا ينحصر فى جانب واحد أو شريحة اجتماعية أو سياسية واحدة ، ولكنه نص على كثير من القواعد والمبادىء السياسية والاجتماعية والأخلاقية والنفسية حتى أنه ليصلح أن يمثل دستورا متكاملا للمجتمع الجديد فى مناحيه المتعددة .

٢ — **عمومية النصوص :** فليس فى الكتاب « فرعيات » أو مسائل خاصة ، أو وقائع محددة ، أو ذكر اشخاص طبيعيين ، انما هى قواعد عامة شأنها شأن القواعد الدستورية فى النظام الوضعى وهى القواعد التى يحويها الدستور « وهو الوثيقة الأساسية التى يبين فيها صاحب السيادة شكل الحكومة وينظم فيها السلطتين التنفيذية والتشريعة ويحدد اختصاصهما ، أو تلك الوثيقة التى تبين نظام الحكم فى الدولة »[25] .

٣ — **مراعاة الواقع الاجتماعى والتاريخى لفئات المجتمع المدنى** فقد كان التركيز مكثفا على قيم الأخوة والتعاون والتكافل وتحمل الديات

---

(٢٣) السنة أنواع ثلاثة : سنة قولية وهى ما كان حديثا من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسنة فعلية : أى ما أتاه من اعمال مختلفة ، وسنة تقريرية أى ما رآه من فعل الغير وما سمعه من أقوالهم وسكت عنه .

(٢٤) النســاء ٥٩ .

(٢٥) د. ثروت بدوى النظام الدستورى العربى ٢٩ ويطلق على الدستور كذلك اصطلاحى « النظام الدستورى والقانون الدستورى » .

... الخ فالمعروف تاريخيا ان النبى — صلى الله عليه وسلم — دخل المدينة وبين الأوس والخزرج دماء وثئور من ايام بعاث[٢٦] ، والتسلط اليهودى على سكان المدينة قائم وخصوصا فى المجال الاقتصادى احتكار واستغلالا واستنزافا .

٤ — وهناك سمه شكلية ولكنها ذات هدف موضوعى يدل على بعد نظر الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهى **اختيار « القالب الكتابى »** . ولم يلجأ الى الاتفاق او التعاهد الشفوى كما حدث فى بيعات العقبة وذلك لتعدد الأطراف واتساع قاعدتهم فالمسألة ليست تعاهدا بين الرسول وعشرات من الناس ولكن المسألة أصبحت تتعلق بشعب « ذى فئات » متعددة . ومشارب مختلفة ، ولا يكفى التوجيه الشفوى أو العرف الجارى لسياسة الأمور وحكم الناس « فالقواعد المكتوبة تفضل العرف من نواح معينة : فهى تمتاز بالوضوح وتحديد الأحكام بصورة تجبر الحكومات على احترامها وعدم الخروج عليها ، على خلاف العرف الذى لا يمكن أن يرقى الى نفس الدرجة من الوضوح والتحديد ، بل يشوبه الغموض وعدم التحديد فى بعض الأحيان ، خصوصا فى فترة التكوين وبالتالى يسهل على الحكام التملص من احكامه والزيغ عن قواعده . كما أن القواعد المكتوبة تكون أسهل مدخلا الى اذهان الأفراد من القواعد العرفية ، لأن نصوصها فى متناول الجميع ، فيسهل على المحكومين معرفة حقوقهم ومدى السلطات التى يقررها الدستور للحكام عليهم . وأخيرا فان القواعد الدستورية المكتوبة يسهل وضعها بسرعة على خلاف العرف الذى يستغرق زمنا طويلا لتمام نشوئه واستقراره . وبذلك يستطيع الدستور المكتوب أن يتجاوب مع حاجات المجتمع الى انشاء قواعد جديدة او الى تعديل القواعد القائمة فى سرعة ويسر كبيرين لا يتوافران فى العرف »[٢٧] .

---

(٢٦) بعاث كانت معركة عاتية بين الأوس والخزرج فى الجاهلية وكان من عادة اليهود ان يذكروا رجال القبيلتين بما حدث فى هذا اليوم حتى تثور فى قلوبهم الاحن والبغضاء ويظلوا دائما على عداوة .

(٢٧) ثروت بدوى : النظام الدستورى ٨٧ .

فحرص النبى — صلى الله عليه وسلم — على استقرار الأمور ووضوح القواعـــد وتحـــديدها وخصوصا فى طور نشوء الدولة كان هـــو الباعث على تقـــديم هـــذه الوثيقة الدستورية الرائعة ، ولا يتحقق ذلك الا اذا كانت مسجلة مكتوبة .

واخيرا نشير الى ملاحظة شكلية قـــد لا تلفت انظار احـــد ، وهى تتلخص فى أمرين :

الأول : أن أطراف الكتاب أو طرفيهم : هما : المسلمون وعلى رأسهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واليهود بالمدينة وما حولها . ومع ذلك لم يكن الكتاب فى هيئة « عقـــد » أو « اتفاقية » يقررها الطرفان ويتناقشان فيما يتفق عليه . ولكنه جاء — كما قال ابن اسحق : كتابا كتبه الرسول — عليه السلام — بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم .

الثانى : ن هـــذا الكتاب ، أو الكتاب الدستورى كان بادرة من النبى — عليه السلام — — وبتعبير آخر لم يطلبه أحـــد . فهل يعـــد ذلك من قبيل « الدستور المنحة » الذى يصوغه الحاكم المستبد على هواه و « يمنحه » للشعب ، متفضلا ممتنا عليهم به ؟

وفى مقام الرد على هـــذه الشبهة أو هاتين الشبهتين نبرز الحقـــائق الآتيـــة :

١ — الواقـــع أنه ليس هنـــاك أطراف متعـــددون أو « شخصيات معنوية » متعـــددة ، فالكل على اختلاف الوانهم واديانهم بدخول النبى — عليه السلام — المدينة أصبحوا « رعايا » فى الدولة الجـــديدة . فهـــذا المسلك من النبى — عليه السلام — ايحاء بوحـــدة الدولة ، أو بنشوء الدولة الواحـــدة . وقـــد نص الميثاق على ذلك فى قوله « **وان يهود بنى عـــوف أمة مع المؤمنين : لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وانفسهم** » .

٢ — أن النبى — عليه السلام — سارع الى تقـــديم هـــذه الوثيقة لاثبات « حسن النية » وحرصه على الموادعة والسلام .

٣ — أن هـــذه الوثيقة لا ترغم أحـــدا على الدخول فيها والالتزام بها من اليهود بصفة خاصة ، ونص الوثيقة صريح فى ذلك كما يظهر فى قـــوله « **وانه من تبعنا من يهود فان له النصرة والأسوة** » .

٤ — ليس فى الوثيقة اى نوع من القهر أو الاجبار أو العـــدوان على حق احـــد ، ومن يقرأ الوثيقة وينعم فيها النظر يكتشف أن ما فيها من اثبات الحقوق لليهود — بصفة خاصة — أكثر بكثير مما نصت عليه من التزاماتهم نحـــو الدولة الجـــديدة والجماعات الأخرى .

بين النبى وكفـــار مكة

صــلح الحــديبية[٢٨]

بين كتاب الموادعة السابق بين النبى والمسلمين من جانب واليهود من جانب آخر كان هناك ست سنوات مشحونة بالأحداث الجسام . وخصوصا فيما يتعلق بالانجازات الحربية . فقـــد أرسل النبى — صلى الله عليه وسلم — عـــددا من السرايا الى جهات متعـــددة من الجزيرة أحرزت عـــدة انتصارات وزادت من تثبيت هيبة الدولة الجـــديدة .

وخلال هـــذه المدة دارت عـــدة معارك بينه وبين قريش كان أهمها بدر وأحـــد والخندق . ولو نظرنا الى حصيلة هـــذه المعارك مجتمعـــة

---

(٢٨) تذكر كتب السيرة والحـديث أن النبى – صلى الله عليه وسلم – فى العام السادس من الهجرة راى فى المنام أنه دخل البيت الحرام ، وحلق راسه ووقف بعرفة ، فاستنفر المسلمين والعرب الى العمرة ، وليس معهم الا السيوف فى اغمدتها ، وساقوا معهم الهـدى ، وكان ذلك فى ذى القعدة . فلما علمت قريش بذلك خرجت بخيلها ورجلها ومن تابعها لمنع النبى ومن معه من دخول مكة ولو بقوة السلاح ، ونزل النبى ومن معه بالحـديبية على بعـد تسعة أميال من مكة ، وأعلن النبى ابتداء حرصه على تجنب الحرب فأعلن أمام أصحابه « أما والله لا يسألونى اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله الا أعطيتهم اياها » . وتعـددت بعثات قريش الى الرسـول – صلى الله عليه وسلم – وهـو لا يفتأ يردد أنه ما جاء لقتال انما جاء لزيارة بيته الله الحرام ولن يقاتل الا من قاتله . وأراد أن يؤكد هـذا المعنى فبعث بعثمان بن عفان الى قريش يشرح لهم الهـدف الذى جاء المسلمون من أجله ، فلما غاب عثمان تردد أن قريشا قـد قتلتــــه ، فلبس المسلمون السلاح ، وبايعهم النبى – صلى الله عليه وسلم – على الموت من أجل عثمان ، ولكن ظهر عثمان . ورأى سفراء قريش وعلى رأسهم سهيل بن عمرو حماسة المسلمين والتفافهم حـول النبى – عليه السلام – فعادوا الى قريش وأخبروا القوم بما رأوا ، فأشار أهـل الرأى منهم بالصلح على أن يرجع محمد وصحبه الى المدينة هـذا العام ويعودوا من قابل . ورجع سهيل ومعه حويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص .. وطال الحـديث بينهم وبين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

وتم الصلح فى صورته المعروفة وكان وقعة على المسلمين هـو شعورهم الحاد بالحزن والأسى « لأنهم خرجـوا ، ولا يشكون فى الفتح لرؤيا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه حلق راسه ، وأنه دخـل البيت فأخـذ مفتاح الكعبة ، وعرف مع المعرفين ، أى وقف بعرفة مع الواقفين [انظر امتاع الأسماع ٢٧٧ – ٢٩٥] .

لوجدنا كفة المسلمين أرجح ، حتى معركة احد لم تحرز فيها قريش نصرا حاسما ، كما كان فيها من الدروس والعبر التى افادها المسلمون الشىء الكثير(٢٩) .

واستطاع النبى — عليه السلام — أن يتخلص من رءوس يهودية أبدت عن نواجذ الشر والخيانة والغدر : من اشهرهم أبو عفك وكعب بن الأشرف واسير بن زارم . وبعد أن نقض اليهود كتاب الموادعة وغدروا وخانوا وحاولوا اغتيال النبى — صلى الله عليه وسلم — وأعانوا عليه الكفار ، طرد بنى قينقاع من المدينة ولحقوا بأذرعات الشام . وطرد بنى النضير فنزل بعضهم بخيبر ونزل آخرون بالشام . وفى السنة الخامسة كان الانهاء التام لوجود بنى قريظة بعد قتل مقاتلتهم وغنم أموالهم وذراريهم .

وأخذ التشريع يتكامل تدريجيا ، والتكاليف تزداد شيئا فشيئا ففرض

---

(٢٩) كان المسلمون قد انتصروا انتصارا باهرا فى أول مراحل المعركة التى قاربت أن تنتهى لصالحهم لولا أن خالف « الرماة » عن أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – فتركوا موقعهم – وكان ثغرة من الثغرات – انحدر منها خالد بن الوليد بخيل المشركين ، فتغير وجه المعركة وقتل عدد من خيار المسلمين على راسهم حمزة . ولكن المشركين لم يفكروا فى اقتحام المدينة لكثرة قتلاهم وجرحاهم . أما الكسب الأكبر فدرسان خالدان :

الأول : ارتباط النصر بطاعة الله ورسوله فى كل الأحوال .

والثانى : الشورى يجب أن تكون قاعدة أساسية من قواعد الحكم مهما ترتب على الأخذ بها من خسائر فى الظاهر لأنها الأنفع للحكومة والمجتمع على المدى الطويل . وقد كان النبى – عليه السلام – يرى عدم الخروج للكفار وايثار التحصن بالمدينة فاذا جاء قاتلوهم ، ولكنه نزل على راى الأغلبية التى كانت التفضل الخروج . ثم كانت الهزيمة فى المرحلة الأخيرة من المعركة ، ولو أن النبى – عليه السلام – انفرد برايه بعد هذه النتيجة ما لامه أحد . ولكنه وهو منصرف من احد متخنا بالجراح مصابا فى أعز الناس عليه : عمه حمزة ينزل عليه قوله تعالى « ... **فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر** ... » آل عمران ١٥٩ وذلك حتى تكون الشورى قاعدة فى البأساء والضراء ، والمنشط والمكره ، وفى حالى النصر والهزيمة . وكان الأخذ بالشورى هو مسلك النبى – عليه السلام – فى سياسة الأمور والناس فيما لم ينزل فيه وحى .

صيام رمضان وفرضت زكاة الفطر وأقام الحـــدود ، وشرع قاعـــدة الولاية العامة للشريعة الاسلامية وذلك برجم يهوديين محصنين زنيا[30] .

والخلاصة انه خلال هـــذه المـــدة ازدادت كسوب المسلمين عسكريا واجتماعيا ، وأصبح للنبى والدولة الاسلامية هيبة فى المنطقة .. بعـــد تصفية الجيوب اليهودية التى كانت مصدر قلق وتهـــديد للدولة . ولم يبق منها الا خيبر التى سيدق النبى — عليه لسلام — حصونها فى صفر فى العام السابع من الهجرة .

ولكن بقى لقريش الشرك كيان فى مكة وخارجها مصدره هيمنتها على الكعبة والبيت الحرام ، وتحريمها الحج وزيارة البيت على المسلمين . فكان فروج النبى اليها استجابة لرؤياه الصادقة وكان ان تم الصـــلح صـــلح الحـــديبية ونصه هـــو :

« باسمك اللهم . هـــذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . واصطلحا على وضـــع الحرب عن النـــاس عشر سنين يامن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض . على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه . وان بيننا عيبة مكفوفة[31] ، وانه لا اسلال[32] ، ولا اغلال[33] . وانه من احب أن يدخل فى عقـــد محمد وعهده دخل فيه ، ومن احب أن يدخل فى عقـــد قريش وعهدهم دخل فيه[34] . وأن محمدا يرجع عنا عامه هـــذا بأصحابه ، ويدخل علينا من قابل فى أصحابه فيقيم بها ثلاثا ، لا يدخل علينا بسلاح الا سلاح المسافر السيوف فى القرب »[35] .

---

(٣٠) ابن تيمية : السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ١٢١ .

(٣١) عيبة الرجل : موضع سره ، والمراد الصـــدور . ومكفوفة أى منطوية على ما فيها ، ويقصـــد بالعيبة المكفوفة أن صـــدورنا معقودة على الوفاء لا يدخلها غل ولا غـــدر .

(٣٢) الاسلال : أخـــذ الشىء خفية دون وجـــه حـــق .

(٣٣) الاغـــلال : الخيـــانة والغـــدر .

(٣٤) سيرة ابن هشام ٣/٢٣٠ . هـــذا وقـــد دخلت خزاعة فى عهد النبى وعقـــده ، ودخلت بكر فى عقـــد قريش وعهدها .

(٣٥) امتاع الأسماع ٢٩٨ .

وكما هــو واضح يكون العهد قــد تضمن الشروط الآتية :

١ ــ هــدنة عشر سنوات .

٢ ــ حق قريش فى أن يرد محمد من جاءه منها مسلما ، وليس لمحمد مثل هــذا الحــق .

٣ ــ حرية الدخول فى حلف مع اى من الطرفين .

٤ ــ رجوع محمد هــذا العام وعودته لزيارة البيت الحرام فى العام التــالى .

٥ ــ الالتزام بحسن النوايا وتجنب الخيانة والغــدر .

وكان وقع الصلح على نفوس عامة المسلمين مؤسفا فقــد استبد بهم شعور هــو مزيج من الحزن والأسى والغضب اذ أنهم كانوا حريصين على مواصلة السير الى مكة بعــد هــذا العناء والحرمان الطويلين .. العناء فى السير من المدينة الى مكة والحرمان من زيارة بيت الله الحرام لمدة سنوات ست .. وهم يعلمون ان رؤيا الأنبياء صادقة وأنها نوع من الوحى ، وقــد راى النبى فى المنام انه يدخل بيت الله الحرام ويؤدى مناسك الحج . فكيف يعــودون دون تحقيق الرؤيا .

ولكن دعك من هــذا لقــد كان اشد الشروط وأقساها على نفــوس المسلمين هــو الشرط الثانى الذى بمقتضاه تسترد قريش من يأتى محمدا منها مسلما ولا ترد من يأتيها من المسلمين كافرا . انه شرط لا تكافؤ فيه من وجهة نظرهم ، واعتبره المسلمون وعمر بخاصة « **اعطاء الدنية فى الدين** » اى تفريطا فى الدين بلا مقابل أو بمقابل هزيل . ومما زاد الكرب شدة وهولا ما حــدث قبيل كتابة الصلح[٣٦] من هبوط أبى جندل بن سهيل بن عمرو

---

(٣٦) نرجع بين يدى هــذه الواقعة ان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان قــد انتهى مع سهيل بن عمرو من مرحلة « المحادثات التمهيدية » والاتفاق على الخطوط العريضة للصلح . ولم يبق الا كتابة المعاهــدة .

على المسلمين فى الحديبية[٣٧] ففرح المسلمون به ، فقام اليه أبوه وضرب وجهه بغصن شوك وأخذ بتلبيبه[٣٨] وصاح أبو جندل بأعلى صوته : « يا معشر المسلمين !! أؤرد الى المشركين يفتنونى فى دينى » ؟ فزاد المسلمين ذلك شرا الى ما بهم ، وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل . . . وقال سهيل بن عمرو للنبى — صلى الله عليه وسلم — « هذا أول ما قاضيتك عليه ، رده » فقال النبى « انا لم نقض الكتاب بعد » فقال سهيل « والله لا اكاتبك على شىء حتى ترده الى » فرده اليه[٣٩] .

وكان رد النبى — صلى الله عليه وسلم — على منطق المعترضين على الصلح وخصوصا عمر « **انى رسول الله ، ولن أعصيه ، ولن يضيعنى** »[٤٠] .

فما فعله النبى ليس اثما ، ولا ينطوى على معصية ، وهو لا يعصى ربه لأنه رسوله ومختاره ، وهو يثق فى نصر الله ثقة بلا حدود . . . وكان النبى فى هذا الصلح أبعد نظرا وأثقب فكرا من المسلمين جميعا ومن المشركين جميعا . بل ان هذا الصلح — وخصوصا الشرط الثانى الذى ظنوا أنه فى صالحهم — يدل على أنهم لا يرون أبعد من أنوفهم . فقد اثبت هذا الشرط خلال أسابيع قليلة أنه فى صالح المسلمين لا عليهم ، فالتاريخ يروى أن قريشا حبست من عندها من المسلمين ومنعتهم الخروج من مكة ، ولكن واحدا منهم هو « **أبو بصير** » تمكن من الفرار الى المدينة وقصد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — طالبا موافقة النبى على اقامته فى المدينة ، ولكن النبى — عليه السلام — قال « **يا أبا بصير انا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصح لنا فى ديننا الغدر وان الله جاعل لك وان معك من المستضعفين فرجا ومخرجا** » ورده النبى مع رسولى قريش

---

(٣٧) وكان قد اسلم فى مكة فسجنه أبوه وقيده بالحديد ، ولكنه استطاع أن يفلت من قيوده ويقصد المسلمين فى الحديبية .

(٣٨) أى جمع اليه ثوبه الذى هو لابسه من عند صدره ونحره ، ثم قبضه وجره اليه .

(٣٩) المقريزى : امتاع الأسماع ٢٩٤ .

(٤٠) السابق ٢٩٥ .

اللذين جاءا فى طلبه ، ولكنه تمكن من قتل احـدهما ، وخرج حتى أتى « العيص » ونزل منه ناحية على ساحل البحر الأحمر على طريق عير قريش الى الشام وبلغ المسلمين الذين حبسوا بمكة خبره فقصـده منهم قرابة سبعين أخـذوا يقطعون على قريش طريقها ويصادرون بضائعها ويقتلون رجالها حتى كتبت قريش الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تسأل بأرحامها الا أواهم فلا حاجة لهم به ، فأواهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقدموا عليه بالمدينة[٤١] .

وزاد عـدد المسلمين المنطلقين من مكة الى المدينة . واكثر من هـذا أثبت النبى — عليه السلام — لقريش وللعرب انه صادق الوعـد والعهد والنية فى حرصه على السلام ورعاية العهود ، والتنزه عن روح العـدوان وقـد أثبت ذلك ابتداء من خروجه الى مكة فى ذى القعدة سنة ٦ هجرية ودعا الى الحج « فلم يقصره فى تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته .. بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التى تشـارك المسلمين فى تعظيم البيت والسعى اليه ، فجعل له وللعرب اجمعين قضـية واحـدة فى وجه قريش ، ومصلحة واحـدة فى وجه مصلحتها . وفضل بذلك بين دعـواها ودعوى القبائل الأخرى ، ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من اثارة نخـوة العرب وتوجيهها الى مناواة محمد والرسالة الاسلامية . فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخـوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها ، ولكنهم اذن عرب ينتصر بهم العرب ، ولا يذلون بانتصارهم ، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجـدادهم . فان خالفـوا قريشا فى شىء ، فذلك شأن قريش وحـدهم أو شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة ، وليس هـو بشأن القبائل أجمعين ..

ثم أفسد على قريش من جهـة أخرى ما تعمدوه من اغضاب العرب على الاسلام ، بما ادعـوا من قطعه للأرزاق وتهـديده للأسـواق التى

(٤١) ابن هشام ٣/٢٣٥ .

يعمرها الحاج ، ويستفيد منها الغادون الى مكة والرائحون منها .. فها هو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين الى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد البيت الحرام . فاذا حال بينهم وبين ما يقصدون أتيه . فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قـــومه .. ولا وزر فيما أصـــاب الأسواق على المسلمين »[42] .

ولو نظرنا الى الشرط الثانى فى ذاته ــ وهـــو الذى اعتبرته قريش بادىء ذى بدء كسبا كبيرا لها ، واعتبره اغلب المسلمين من قبيل اعطاء الدنية فى الدين ــ لوجـــدناه « فارغ المضمون » بالنسبة لقريش ، كما انه لا ينطوى ــ فى ذاته ــ على اى اضرار بالمسلمين أو عقيدة الاسلام حتى لو لم تقـــع واقعة « أبى بصير » واخـــوانه « فلو أن النبى شرط على قريش أن ترد اليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهـــداية الاسلامية ، ونقض الوصف الذى يصـــف به المسلمين ، فان المسلم الذى يترك النبى باختياره ليلحق قريشا ليس بمسلم ، ولكنه مشرك يشبه قريشا فى دينها ، وهى أولى به من نبى الاسلام .

أما المسلم الذى يرد الى المشركين مكرها فانما الصلة بينه وبين نبى الاسلام ، وهـــو شىء لا سلطان عليه للمشركين ، ولا تنقطع الصلة فيـــه بالبعـــد والقرب . فان كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينـــه فلا خير فيه ، وان كان وثيق الدين فبقى على دينه فلا خسارة على المسلمين »[43] .

وثمة أدلة أخرى تدل على عبقرية النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى هـــذا الصلح ، وتتمثل فيما يأتى :

١ ــ اعتراف قريش « رسميا » بمحمد قائدا وزعيما ، وبالمسلمين جماعة لهـــا وجود وثقل وكيان ... لم يعـــد محمد « عمليا » و « رسميا »

(٤٢) العقاد : عبقرية محمد ٥٧ .
(٤٣) العقاد : عبقرية محمد ٦٠ .

ذلك المطارد المطلوب ، ولم يعد المسلمون هم الضعفاء أو المستضعفون ، ولكنهم بقيادة الرسول أصبحوا كيانا سياسيا « معترفا به » .

٢ — الكسب الذى جناه المسلمون بفتح الباب على مصراعية لمن أراد من العرب الدخول فى أمر محمد باشتراط أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه . ومعنى ذلك كف أذى قريش عن الذين يتبعون محمدا . وكان رد الفعل حيال هذه المادة مباشرا فتواثبت خزاعة فقالوا نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، وقالوا نحن فى عقد قريش وعهدهم . وكانت هذه المادة بمثابة حجر الزاوية فى خطة النبى العامة لكسب شبه جزيرة العرب الى جانبه فى السنوات القليلة التى تلت الحديبية(٤٤) .

وهذا النص — حق الدخول فى حلف أحد الطرفين — وان كان نصا متوازيا متكافئا كان كسبا سياسيا اذ أضفى حماية « رسمية » مكتوبة على من يدخل فى حلف محمد ، وهى حماية كانوا فى حاجة اليها لتفادى غدر قريش ، أما من يدخل فى عهد قريش فلم يكونوا فى حاجة الى مثل هذه « الحماية » لأن النبى والمسلمين لا يغدرون ولا يريقون دما الا بالحق ، فلهم من مبادىء الاسلام وسماحته وانسانيته خير حماية دون نص(٤٥) .

٣ — لم تفد قريش من الهدنة شيئا ، بينما أفاد النبى والمسلمون الكثير : اذ عاد النبى والمسلمون الى مكة معتمرين فى العام التالى(٤٦) . وقد

---

(٤٤) د. عون الشريف قاسم : نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ٦٨ .

(٤٥) وكان هذا النص هو مفتاح الخير على المسلمين فقد كان نقضه هو السبب المباشر لفتح مكة ، اذ لم يمض عامان حتى اباتت عن طبيعتها فى الغدر فحرضت بكرا على خزاعة واعانتها بالسلاح والرجال فاعملوا سيوفهم فى الخزاعيين وبعثت خزاعة عمرو بن سالم الخزاعى يستصرخ النبى والمسلمين فاستجاب النبى – عليه السلام – وكان ما كان من فتح مكة .

(٤٦) ابن هشام ٣/٢٧٣ .

دامت الهدنة عامين فحسب ، ولكنهما كانا كافيين لمحمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ لتثبيت مركزه ، ولد نفسه بالقوة اللازمة لكسر شوكة قريش ، وتقويض سلطانها . وفى هـــذه الأثناء دك معاقل اليهود فى خيبر وفـــدك فى العام السابع للهجرة ، وبعث بحملة الى مؤته فى العام الثامن من الهجرة . وفى هـــذا العام الثامن كان المسلمون موقنين من النصر ، فقـــد تضخمت أعـــدادهم وتكاثرت ، وانضم الى صفوفهم جماعة من كبار المكيين كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وكان جيشهم الذى قـــدر عدده بعشرة آلاف[47] دليلا واضحا على تفوقهم الحربى والسياسى فى شبه جزيرة العرب »[48] .

هـــذا هو صلح الحـــديبية ، كان دليلا على عبقرية النبى السياسية وبعـــد نظره كما بينا فلا عجب أن يسميه القرآن « فتحا » فينزل الله على نبيه ـــ عليه السلام ـــ بعـــد عقـــد الصـــلح وانصرافه من الحـــديبية « **انا فتحنا لك فتحا مبينا** »[49] .

****

وكان كتاب الموادعة الذى بين الرسول والمسلمين واليهود فى السنة الأولى للهجرة ومعاهـــدة الصلح .. صلح الحـــديبية فى السنة السادسة أهم الكتب السياسية فى تاريخ الدولة الناشئة ، لأن الأول يمثل « القانون الدستورى » الذى ينظم العلاقات بين السلطة الحاكمة ، وفئـــات الشعب المختلفة ، وبين هـــذه الفئات نفسها بعضها بعضا وينظم الحقوق والواجبات فى شتى المجالات .

أما الثانى فكان فتحا حقيقيا كما ذكر القرآن الكريم ، وكان دليلا عمليا رائعا على عبقرية النبى السياسية وبعـــد نظره .وجاءت الوقائع والأحداث القريب منها والبعيد تثبت هـــذه الحقيقة .

(٤٧) قـدره بعض المؤرخين بأضعاف هـذا العـدد .
(٤٨) عـون الشريف : السابق ٧٠ .
(٤٩) سورة الفتح الآية ١ . وانظر السيوطى : أسباب النزول ١٥٤ .

ويلحق بهـــذا اللون من الكتب « كتب الصلح والمعاهـــدات » ما يسمى « كتب الأمان » وهى الكتب التى يمنحها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لفرد أو جماعة أو قبيلة أوبلد ــ وفيها ينص على « أمانهم » بمعنى أنه لا يحق لأحـــد أن يتعرض لهم أو لأموالهم بعـــدوان . فهو نوع من النص على حماية السلطة لصاحب العهد . وكتب الأمان هـــذه نوعان هما :

١ ــ **كتب الأمان الشامل أو العام** : مثل كتابه لأهل أذرح وجرباء الذى اكتفى فيه بالنص على انهم « آمنون بأمان الله وأمان محمد »(٥٠) .

٢ ــ **كتب الأمان المفصلة** : وفيها ينص على ما يشمله الأمان ، كعهده ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأهل أيلة(٥١) فقـــد أمنهم على سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر . . ولا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر »(٥٢) .

ولمثل هـــذه الكتب فى الغالب داعية وسبب كطلب اهلها الأمان ، أو دفعهم الجزية ، أو اعلانهم السلم ، أو ما يدور فى هـــذا الفـــلك ، وقـــد يذكر فيها مقـــدار ما يلتزمون به ، أو ما يجب عليهم من عمل وخلافه .

---

(٥٠) امتاع الأسماع ٤٦٨ .
(٥١) مدينة على خليج العقبة شمالا .
(٥٢) امتاع الأسماع ٤٦٨ .

(٢) كتب الدعــوة الى الاســلام

ومن أهم الكتب فى حياة النبى — صلى الله عليه وسلم — الكتب التى بعث بها الى شخصيات ذكرت فى التاريخ على سبيل الحصر ، وفيها يدعوهم الى الاسلام . ويلفت نظرنا الى هــذه الكتب امران :

الأول : ان اغلبها بعث به الى ملوك وأمراء وحكام وذوى مناصــب عليا فى بلادهم .

والثانى : أن اغلب هــذه الكتب كان فى العام السادس للهجرة او ما بعــدها .

وتبرير الأمر الأول لا يحتاج الى عناء ، فالناس على دين ملوكهم كما يقول المثل . وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — يطمع فى اسلام الرعايا باسلام حكامهم ، وفى ذلك توفير كبير للجهود ، وكسب كبير للاسلام .

أما اختيار العام السادس لارسال هــذه الكتب فلأنه كان البــداية الحقيقة للانفتاح الاسلامى فى السياسة الخارجية — ان صح هــذا التعبير — ابتداء بقريش فى الحــديبية ، لذا ارجح أن تكون هــذه الكتب قــد بدىء فى ارسالها بعيد الحــديبية وذلك بعــد أن أمن النبى — صلى الله عليــه وسلم — قريشا بالاتفاق على هــدنة طويلة ، أو ما يمكن أن نسميه بتأمين الجبهة الداخلية ، حتى اذا ما غضب واحــد من هؤلاء الملوك وأرسل بجيش لمحاربة الرسول لم تكن قريش يدا معه على محمد — عليه السلام — .

* * *

الرســـل المبعـــوثون :

وكان رسل النبى الذين يحملون كتبه هم :

١ ــ حاطب بن ابى بلتعة اللخمى : الى القوقس بمصر .

٢ ــ شجاع بن وهب الأسدى : الى الحارث بن ابى شمر الغسانى ملك تخـــوم الشام .

٣ ــ دحية بن خليفة الكلبى : الى قيصر ملك الروم .

٤ ــ سليط بن عمرو العامرى : الى هـــوذة بن على الحنفى والى ثمامة بن اثال : رئيسى اليمامة .

٥ ــ عبد الله بن حـــذافة السهمى الى كسرى ملك فارس .

٦ ــ عمرو بن امية الضمرى : الى النجاشى ملك الحبشة .

٧ ــ العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى ملك البحرين(٥٣) .

مضامين الكتب :

وتشترك كل هـــذه الكتب ــ كما ذكرت ــ فى مضمون محورى وهـــو الدعوة الى الاسلام التى جاءت فى أساليب متعـــددة(٥٤) ، ولم تأخـــذ صورة واحـــدة ، ولكن بجانب هـــذه الفكرة المحورية كان هناك مضامين اخرى فرعية مشتركة بين هـــذه الكتب جميعا أو اغلبها وان ارتبطت ارتبـــاطا وثيقا بالمضمون الرئيسى . ومن هـــذه المضامين المشتركة :

١ ــ فى الاسلام السلامة ، ومن امتنع عن الاسلام أثم .

---

(٥٣) انظر امتاع الأسماع ٣٠٧ .

(٥٤) لم يستخدم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ اسلوبا واحدا فى هـذه الكتب ، وكان من الممكن أن يجعله كتابا واحـدا يرسل منه نسخة لكل واحـد من هؤلاء ولكن النبى ــ عليه السلام ــ لم يفعل ذلك لفيض اســلوبه وفصاحته ، ومراعاة مقتضى الحال والظروف والطبائع والمشارب المختلفة بين هؤلاء جميعا .

٢ — محمد هــو رسول الله المبعوث للناس كافة .

٣ — الممتنع عن الاسلام لا يحمل اثم بقائه عى الكفر فحسب ولكن اثم رعاياه ، لأنهم يتبعونه ضلالة أو هــداية والنــاس على دين ملوكهم .

٤ — الاستشهاد بآية أو آيات من القرآن مناسبة للمقام ومتعلقة بطبيعة المرسل اليه(٥٥) .

فكل هــذه الكتب كانت الفكرة الأساسية التى تحملها هى الدعــوة الى الاسلام ، ثم هى تمزج فى تضاعيفها بين الترغيب فى الدعوة الجــديدة والترهيب المجمل من نتيجة المخالفة برفض اعتناق الاسلام وهــو الدين الخاتم الذى جاء به رسول بعث به الله للناس كافة وهــو محمد بن عبد الله عليه السلام .

✻ ✻ ✻

ولكن على الرغم من هــذه المشابه فان هناك ملامح فارقة لا يخطئها النظر بين هــذه الكتب .

١ — فبعضها يأتى موجزا فى سطرين ، ويدعو الى الاسلام مباشرة دون تفصيل . ككتابه — عليه السلام — الى الحارث بن أبى شمر الغسانى . ونصــــه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى الحارث بن ابى شمر . سلام على من اتبع الهــدى ، وآمن بالله وصــدق وانى ادعــوك الى أن تؤمن بالله وحــده لا شريك له . يبقى لك ملكك »(٥٦) .

---

(٥٥) وهــذا أمر طبيعى فالقرآن هــو المصدر الأول للتشريع ، وهــو السجل الخالد للقيم الاسلامية ، وقــد تكون الآيات المستخدمة عرضا لموقف القرآن من الرسل كعيسى وموسى .

(٥٦) جمهرة رسائل العرب ٤٤ . ويقال انه لمـا قرأ الكتاب رماه وارغى وازبد ، وهم بالسير فى جيش الى الرسول — صلى الله عليه وسلم — ولكن قيصر ثناه عن عزمه .

وبعضها يأتى أكثر تفصيلا كأغلب هــذه الكتب ولكنها جميعا تلتقى فى صفة الايجاز . وفى كتاب واحــد فقط هــو كتابه للمنذر بن ساوى يذكر بعض ملامح المسلم ، فالمسلم — على حــد قــوله عليــه السلام — هــو **من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا** »(٥٧) .

٢ — وانفرد كتابه الى النجاشى عن الكتب جميعا بأمرين هما : ذكر بعض أسماء الله الحسنى « .... **الملك القــدوس السلام المؤمن المهيمن** » ، وشرح طبيعــة سيدنا المسيح عيسى بن مريم — عليــه السلام — فهــو « **روح الله ، وكلمته ألقــاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه** .... »(٥٨) .

والعجيب أن يذكر النبى — عليه السلام — ذلك فى كتابه الى النجاشى ، وربما كان أولى به رجل كالمقــوقس « عظيم القبط » حتى يبعث فيه حسه الدينى ... فهو زعيم دينى قبل كل شىء ، ولكن معرفة الواقع التاريخى آنذاك تجعلنا نؤمن بأن النبى — صلى الله عليه وسلم — فى اختصاصه كتابه للنجاشى بذكر المسيح وكيفية ولادته ، فقبل هــذا بعام هاجر جعفر بن ابى طالب وعشرات من المسلمين الى الحبشة ، وأرسلت قريش فى اثرهم وفــدا منهم عمرو بن العاص لاستعادة هؤلاء « الفارين » الخارجين وارجاعهم الى مكة ، أو على الأقل محاولة تأليب النجاشى عليهم فلم يجــدوا ســبيلا يتسللون منه الى قلب النجاشى الا طبيعة المسيح ، ورأى المسلمين « السىء » فيــه . وشرح المسلمون وجهــة نظر الاسلام فى خلق المسيح ومكانته عند المسلمين فخابت مؤامرة الكفار ، وعامل النجاشى المسلمين معاملة طيبة .

وقــد اراد النبى — عليه السلام — باعادة ذكر هــذه المسألة فى كتابه تأييدا لمــا ذكره المسلمون ، وتأكيدا له وكسبا لمشاعر هــذا الملك العظيم ، وقــد تحقق ما أراد فأرسل اليه النجاشى كتابا يعلن فيه انه أسلم

---

(٥٧) البلاذرى : فتوح البلدان ٩١ .

(٥٨) انظر أسد الغابة ١١٩/١ وجمهرة رسائل العرب ٤٠ . وسنرى أنه فى احد كتبه لخيبر يتحدث بشىء من التفصيل عن موسى عليه السلام .

على يد جعفر بن أبى طالب ، ويعبر عن ايمانه بما ذكره الرسول فى طبيعة المسيح عليه السلام .

٣ ــ كما انفرد كتاب النبى الى النجاشى بذكر « مطلب خاص » هــو أن يحسن النجاشى الى جعفر بن أبى طالب ومن معه من المهاجرين الى الحبشـــــة .

ويراعى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يكون المثل التاريخى الدينى مناسبا عقــديا ودينيا لمن يرسل اليه كتاب الدعوة ، ففى كتابه الى خيبر ما يظهر لنا صــحة هــذه المقولة ، يقول عليه السلام فى كتابه « **بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه المصــدق بما جاء به موسى ، الا ان الله قــد قال لكم : يا معشر أهــل التوارة ــ وانكم تجدون ذلك فى كتابكم : (محمد رسول الله والذين معه أشــداء على الكفار رحماء بينهم ....) ، وانى انشدكم بالله ، وأنشدكم بما انزل عليكم ، وانشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من اسباطكم المن والسلوى ، وانشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله الا أخبرتمونا هل تجدون فيما أنزل عليكم ان تؤمنوا بمحمد ؟ فان كنتم لا تجــدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم ، (قــد تبين الرشد من الغى) فادعوكم الى الله والى نبيه** »(٥٩) .

٤ ــ وأكد النبى ــ عليه السلام ــ فى بعض هــذه الكتب مسئولية الحكام عن ضـــلال الرعية ، وكان هــذا التأكيد صريحا قارعا شــديد اللهجة فى كتب ثلاثة وهى كتبه الى كسرى الفرس وقيصر الروم والمقوقس ... فالأولان هم أوســع حكام الأرض نفــوذا . والثالث هــو صاحب الهيمنة الدينية على أقباط مصر .... ففى كتابه ــ عليه السلام ــ الى قيصر الروم « **فان توليت فانما عليك اثم الأريسيين ....** »(٦٠) .

---

(٥٩) النويرى : نهاية الأرب ٣٧٢/١٦ .

(٦٠) جاء فى لسان العرب : الأريس (كامير وسكيت) هــو الأكار : أى الفلاح . وكتب معاوية الى صاحب الروم حين علم أنه يريد أن يقصد الشام ايام صفين مستغلا ما بينه وبين على من خــلاف « .... ولأردنك أريسا من الأرارســة ترعى الدوابل » .. والأريس (كسكيت) هــو الأمير والرئيس . فعلى الأول يكون المعنى فان عليك اثمك واثم رعاياك الذين يتبعــونك وينقادون لأمرك . وعلى الثانى فان اثم الأكابر عليك لأنك ان توليت عن اجابة الدعوة لم يجب اليها كبراء دولتك تبعا لك ، ولــو أنهم أسلموا لهــدوا قــومهم الى الاسلام لما فيهم من الأمر المطاع والكلمة النافــذة وقــوة التأثير . [أنظر جمهرة رسائل العرب هامش ٣٨] .

وفى كتـابه الى كسرى الفرس « .... **فـان أبيت فعليـك اثم المجـوس** »[61] .

وفى كتابه الى المقوقس : « **فان توليت فانما عليك اثم القبط** »[62] .

ولكنها فروق لا تبتعـد ، بل هى ترتبط بالفكرة الأساسية الرئيسية وهى الدعـوة الى الاسـلام .

وقـد كان تأثير هـذه الكتب مختلفا كما أشرنا من قبـل : فأما المقوقس ، فانه قبل كتاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واهـدى اليه أربع جـوار ، منهن مارية . وأما قيصر (واسمه هرقل) ، فانه قبل أيضا الكتاب واعترف بالنبوة ، ثم خاف من قـومه فأمسك . وأما الحارث ابن أبى شمو الغسانى ، فانه لمـا اتاه الكتاب قال : أنا سائر اليه « يعنى محاربا » . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وقد بلغه ذلك عنه : باد ملكه .

وأما النجاشى ، فانه آمن برسول الله واتبعه ، واسلم على يد جعفر ابن ابى طالب رضى الله عنه ، وارسل ابنه فى ستين من الحبشة فغرقـوا فى البحر . وبعث اليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يزوجه بأم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب — وكانت مهاجرة بالحبشة مـع زوجها عبد الله بن جحش فتنصر هناك — فزوجه اياها ، وقام بصداقها : اربعمائة دينار من عنده .

واما كسرى أبرويز بن هرمز ، فانه مزق الكتاب ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : مزق الله ملكه . فسلط عليه ابنه شيرويه فقتله .

---

(٦١) المجوس هم عبدة النار . والمفرد مجوسى .

(٦٢) القبط هم سكان مصر . ولكنها تطلق الآن على النصارى فقط . والمفرد قبطى .

وأما هوذة بن على ، فبعث وفدا بأن يجعل له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الأمر بعده حتى يسلم ، والا قصده وحاربه . فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : اللهم اكفنيه ! فمات بعد قليل . وأما المنذر ابن ساوى ، فانه أسلم وأسلم أهل البحرين »[٦٣] .

ولكننا نستطيع أن نقول أن التأثير كان ايجابيا الى حد بعيد والذين لم يسلموا فى حياة النبى — أفرادا كانوا أو قبائل — اسلموا فى حياة خلفائه .

---

(٦٣) أنظر امتاع الأسماع ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٣) الرســائل والكتب التشريعية

وهى تلك التى توجه الى الأفراد أو القبائل وفيها عرض لأحكام الدين المختلفة ، وما يتطلبه الشرع فى مجال العبادات والمعاملات وغيرها . وكانت هــذه الكتب تفصل كثيرا من قواعــد الدين ، ولكنها خصـــت الزكاة بالنصيب الأوفى وذلك لأنها الركن الاسلامى الوحيد ذى التشاعيب التى تحتاج الى تفصيل وحساب . مثل كتابه الى معاذ بن جبل عامله على اليمن . وهــو من أواخر كتبه — عليه السلام — وفيه يتحــدث عن خراج الأرض والجزية واليهود . وهــو من أوجز الكتب التشريعية ، وفيه يبين أن زكاة الأرض عشر ما تخرج ان سقيت بالمطر ، ونصف العشر اذا سقيت بمجهود وعمــل : « **وأن على كل حالم دينارا أو عــدل ذلك من المعافر ، وأن لا يفتن يهــودى عن يهــوديته** »[٦٤] .

ومن أوفى هــذه الكتب التشريعية ما كتبه لعمرو بن حزم الأنصارى ، وقــد بعثه الى بنى الحارث بن كعب يعلمهم السنة ، ومعالم الاســلام ويأخــذ منهم صــدقاتهم وقــد حــدد فيه واجبات الوالى وكنها واجبات تنبع من شخصيته معلما وهاديا نقيا نقيا قبل أن يكون حاكما وجابيا . فمن أهم واجباته : أن يعلم الناس قواعــد الدين من وضوء وصلاة وحج لا فى الأصول ولكن فى الهيئة وطريقــة الأداء بالتفصيل وكذلك الزكاة ومقــدارها فيما اخرجت الأرض وفى الابل والبقر . والجزية .

بل جعــل من واجبــات الحاكم أن يعلم الناس الواجبــات الاجتماعية حتى فى المظهر والهيئة فمن هــذه الواجبــات أن : « **ينهى الناس أن يصلى**

(٦٤) البلاذرى : فتوح البلدان ٨١ . والعــدل : المثيل والمعافر : الأثواب .

أحــد فى ثوب واحــد صغير ، الا أن يكون ثوبا واحــدا يثنى طرفيه على عاتقيه . وينهى الناس أن يحتبى أحــد فى ثوب واحــد يفضى بفرجــه الى السماء ، وينهى أن لا يعقص أحــد شعر رأسه اذا عفــا فى قفاه . وينهى — اذا كان بين الناس هيج — عن الدعاء الى القبائل والعشائر ، وليــكن دعاؤهم الى الله وحــده لا شريك له .... » .

وختم العهد بما يجب عليه نحــو أهل الذمة :

« .... **وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى اسلاما خالصا من نفسه ، ودان بدين الاسلام فانه من المؤمنين ، له مالهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فانه لا يفتن عنها . وعلى كل حالم ذكر أو أنثى ، حر أو عبد دينار واف أو عوضه ثيابا ، فمن أدى ذلك فان له ذمة الله وذمة رسوله وللمؤمنين جميعا** »(٦٥) .

* * *

والكتاب السابق كما ذكرت كتاب تشريعى شامل ، ولكن هناك ما يمــكن أن نسميه « **الكتب التشريعية المتخصصة** » وهى تلك الكتب التى تغطى جانبا تشريعيا معينا يعالجه الكتاب معالجة تفصيلية دون ادخال مسائل أخرى معه . وأوفى هــذه الكتب هــو كتابه — صلى الله عليــه وسلم — فى الصــدقات(٦٦) الذى كان عند أبى بكر الصــديق — رضى الله عنه — وقــد كتبه ابو بكر لانس بن مالك حينما استعمله على البحرين . ولم يترك الكتاب صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ، وذلك فيما يتعلق بزكاة الحيوان ، من ابل وبقر وغنم .

ونجتزىء بهــذين المثلين للكتب التشريعية . وهناك كتب اقــل شمولا وأكثر ايجازا من الكتب السابقة تدور حول أمور اغلبها يتعلق بالعقيدة والفروض الاسلامية . والهــدف منها تعليم المسلمين أمور دينهم ، والزام الحكام والعمال والقواد بشريعة الله .

(٦٥) أنظر جمهرة رسائل العرب ٦٤ — ٦٦ .
(٦٦) صحيح البخارى باب زكاة الغنم ٢/١٤٦ .

(٤) كتب الاقطاع والغنائم

يقصد بكتب الاقطاع تلك الكتب التى يمنح بمقتضاها فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعات الحق فى امتلاك الأرض أو ماء أو شجر أو ما شابه ذلك ، أو احتكار الانتفاع بذلك بصفة دائمة أو فى وقت محدود . والخلاصة أن الاقطاع يفيد المنح والاعطاء[٦٧] ، وان انصرف غالبا الى الأرض .

وقد « أقطع » النبى — صلى الله عليه وسلم — أفرادا وقبائل ، ويرجع ذلك الى أسباب تختلف باختلاف الحالات ووراء هذه الأسباب كلها باعث نفسى ، وان شئت فقل : خليقة مركوزة ، وشيمة ثابته فى نفسه وهى الكرم ، فلم يكن هناك من يباريه فى هذه الصفة : قال ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان أجود الناس بالخير ، وأجود ما كان فى شهر رمضان ... وعن أنس أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع الى بلده وقال : « أسلموا ، فان محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة . وأعطى غير واحد مائة من الابل ، وأعطى صفوان مائة ثم مائة ... وقد قال له ورقة بن نوفل : انك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، ورد على هوازن سباياها وكانوا ستة آلاف »[٦٨] .

وهناك سبب من أسباب الاقطاع — وان كان خاصا بالمهاجرين — وهو **الحاجة الى العيش والاستقرار** ، فقد واجهت محمدا — صلى الله عليه

---

(٦٧) جاء فى لسان العرب : ... القطعة من الشىء : الطائفة منه .. والقطيعة ما اقتطعته منه . وأقطعنى اياها : أذن لى فى اقتطاعها ، واستقطعه اياها : سأله أن يقطعه اياها . وأقطعته قطيعة : أى طائفة من أرض الخراج ، وأقطعه نهرا : أباحه له . وفى حديث أبيض بن جمال : أنه أستقطعه الملح الذى بمارب فأقطعه اياه .

(٦٨) القاضى عياض : الشفا ٨٦/١ .

وسلم — حين تولى زمام الأمور فى المدينة المنورة مشكلة حادة تحتاج الى حل فورى ، وهى « توفير السكن للمهاجرين » ومعظم هؤلاء كانوا فقراء لا مساكن لهم بالمدينة. وكاجراء سريع لايوائهم آخى بين الأنصار والمهاجرين ، والذى قد يعنى فى صميمه اقتسام الثروات الموجودة بين الجانبين ، ولكن هذا الحل كان حلا مؤقتا وجزئيا فى نفس الوقت ، لجأ النبى — عليه السلام — بعده الى منح المهاجرين اراضى سكنية داخل المدينة برضى من الأنصار ، وقد بنى المهاجرون فيها دورا لهم .

ثم كان هناك دافع التعمير ، فأقطع النبى عليه السلام عددا من المهاجرين أراضى فى أودية المدينة الشهيرة مثل العقيق وينبع والفرع والبقيع وكلها أراضى غير مستصلحة . ويتراوح موضوع الاقطاع فيها ما بين النخيل والآبار والمعادن والأرض . ويروى التاريخ أن النبى عليه السلام قد اقطع من أرض المدينة ما كان عفاء ، اى ما ليس لأحد فيه اثر ، أو ما ليس فيه ملك .

ثم كانت حملات الرسول — صلى الله عليه وسلم — ضد يهود ، المدينة التى انتهت بطردهم جماعة اثر جماعة ، وبنفيهم التدريجى عن مواطنهم حول المدينة ، فقد اتاحت الأرض الغنية التى خلفوها فرصا كبيرة أمام السكان الجدد ، والروايات مليئة بالتفاصيل عن القطائع التى منحت للصحابة الذين كانوا يسكنون المدينة ولغيرهم من كبار الشخصيات[69] .

وزيادة على البواعث السابقة هناك سبب يتعلق بمصلحة الدين والدولة وهو تأليف قلب الشخص وجذبه للاسلام للانتفاع بقدراته

---

(٦٩) أنظر : عون : نشأة الدولة الاسلامية ٢٧١ — ٢٧٥ .

ومكناته ونفــوذه لصالح الاسلام والمسلمين مثل « مجاعة بن مرارة(٧٠) فقد قــدم على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى وفــد بنى حنيفة وكان فيهم مسليمة الكذاب . فسأل مجاعة رسول الله أن يقطعه أرضا فأقطعه اياها ، وكتب له بذلك كتابا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هــذا كتاب كتبه محمد رسول الله لمجاعة بن مرارة بن سلمى ، انى أقطعتك الغورة وغرابة والحبل »(٧١) .

أما نموذج الاقطاع الجماعى فاقطاعه للداريين(٧٢) ، فقــد روى أنه قــدم من الشام نفر منهم على النبى وهــو فى مكة قبل الهجرة ، فأسلموا ، وسألوا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يقطعهم أرضــا من أرض الشام ، فــدعا بقطعة من أدم ، وكتب لهم فيها كتابا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هــذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمــد رسول الله للداريين اذا أعطاه الله الأرض . وهب لهم بيت عينون وحبرون والمرطوم ، وبيت ابراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ بمن فيهن لهم الى الأبــد » .

شهد بذلك عباس بن عبد المطلب ، وخزيمة بن قيس ، وشرحبيل بن حسنة ، وكتب وأعطاهم الكتاب ، وقال **انصرفوا حتى تسمعوا انى قــــد هاجرت فانصرفوا**(٧٣) .

---

(٧٠) وكان من رؤساء بنى حنيفة وعظمائهم وأصحاب الرأى فيهم ، وهــو فى السيطرة على قــومه ومكانته بينهم يأتى بعــد مسيلمة ، وان كان أرشد منه وأبعــد نظرا [انظر أسد الغــاية ٥/٦١] . وانظر فى ذكائه وحسن تدبيره وبراعــة تصرفه أيام اليمامة وهــو مرقــد : فتــوح البلــدان ١٠٠ .

(٧١) فتوح البادان ١٠٣ ـ الغــورة وغرابة والحبل : مواضع باليمامة .

(٧٢) هم بنو عبد الدار بن هانىء بنى حبيب .

(٧٣) جمهرة رسائل العرب ٧١ .

وقــد يأخــذ الشك بعض الباحثين فى هــذا الكتاب مثل الدكتور حميد الله الذى اعتمد فى شكه فى مثل هــذا اللون الكتب على ركيزتين :

الأولى : معيار « الوضع والصحة » الذى أخــذ به نفسه فى التحقيق وهــو أن الوثائق التى لا تشتمل الا على الحقوق دون الواجبات .... تعتبر موضوعة[٧٤] .

والثانية : التكييف القانونى للجماعة الاسلامية فقــد كان عصر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل الهجرة عهد تمهيد وتجربة ، ولا يصــح أن يقال ان الجماعة الاسلامية بمكة كانت حينئذ دولة من الدول ، فانه لم يكن لهــا كيان سياسى ، ولا نظام ادارى . ولا تصادف فى هــذا العصر ما يطلق عليه اسم السياسة الخارجية سوى بيعتى العقبة .... الا أنهما لم تكتبا فى قرطاس ، ولم تؤخــذا الا سرا[٧٥] .

ولكن ما ذهب اليه الدكتور حميد الله فى كتابه القيم ــ أو بعض ما ذهب اليه ــ **فى حاجــة الى نظر :**

١ ــ فليس هناك ما يمنع عقلا وعادة أن يكون هناك من الوثائق ما يشتمل على حقوق فقط . بل أن « وثيقتى » العقبة ــ وان كانتا شفويتين ــ لم تشتملا الا على « حقوق » فقط فى أعناق الأنصــار نحــو النبى ــ عليــه السلام ــ وجماعة المسلمين . واعتقد أن تعميم الحكم بهــذه الصورة على كل « وثائق الحقوق » غير سليم ، والأصح من ذلك ــ فى رأيى ــ هــو النظر الى هــذا اللون من الوثائق .. كل وثيقة على حــدة ، أو بتعبير أدق : ينظر الى « الحقوق » التى تضمها الوثيقــة ويتم تقييمها تقييما موضوعيــا وتاريخيا ، والبحث فى امكان منحها أو عــدمه ، وكذلك تقييم الوضع الاجتماعى

---

(٧٤) مجموعة الوثائق السياسية ١٨ .
(٧٥) الســابق ١٣ .

والدينى والسياسى لكل من « المـــانح » و « الممنوح » وطبيعة العلاقات التى تربط بينهما ، على ما هو معروف فى مناهج البحث والتحقيق .

٢ — ونحن مع الدكتور حميد الله فى مقولته الثانية فى شكلها العام ، فصحيح ما ذهب اليه من أن الدولة الاسلامية لم يكن لهـــا « وجود فعلى » الا فى المدينة بعـــد هجرة النبى — عليه السلام — اليها . وأن كتابة الوثائق ارتبطت بنشأة الدولة . نعم هـــذا صحيح ، ولكن اســـــتخدام النبى والمسلمين الكتــــابة بدأ فى مكة ، فكتبـــوا آيات القرآن التى نزلت بمكة أو بعضها ، فليس هناك أيضا ما ينقض هـــذه الوثيقة اعتمادا على الحكم العام بارتباط كتابة الوثائق بوجـــود الدولة ، وخصوصا أنهـــا تكاد تكون الوثيقة الوحيدة التى كتبها النبى قبل الهجرة .

٣ — ولكن قـــد يأتى الشك فى هـــذه الوثيقة من ناحية النظر الى « طبيعة الحقوق المقطعة » وتوقيت المنح . فهى تمثل اقطاعات ضخمة . ثم كيف يقطع النبى — عليه السلام — ما لا يملك ، وما لا يملك المسلمون آنذاك ؟ أو بتعبير آخر : كيف يمنح قـــوما أشياء لا يعلم الا الله ان كانت ستئول لجماعة المسلمين أم لا ؟

ولكننا لا نستبعد صحة الوثيقة : فمنح الكثير والغزير ليس غريبـــا وليس كثيرا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقـــد رأينا صورا من كرمه التى عرضها القاضى عياض فى كتابه « الشفاء » .

وفى سيرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — واقعة منح أشـــياء منحا مضافا الى المستقبل ، فقـــد كتب كتابا لسراقة بن ملك او على الأقل وعـــده وعـــدا شفويا مؤكدا بحقه فى سوارى كسرى وكان ذلك والنبى فى طريقه من مكة الى المدينة مهاجرا مع صاحبه أبى بكر .

ولماذا لا يكون ذلك من « اشراقات النبوة » وهى نعمة يمنحها الله انبياءه يعبر عنها النبى — عليه السلام — حتى فى حالات الضيق والكرب تقوية لعزم المسلمين ، وزرعا للأمل والثقة بالله فى نفوسهم ، وقد جاء فى الأثر ما خلاصته أن المسلمين أثناء حفر الخندق وهم مهددون بانقضاض قريش والأحزاب عليهم فى اية لحظة اعترضتهم صخرة فلما ضربوها بالمعاول برقت ثلاث مرات فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — « **انى رأيت فى الأولى قصور اليمن ، ثم رأيت فى الثانية قصور الشام ، ورايت فى الثالثة قصر كسرى الأبيض بالمدائن ... هذه فتوح يفتحها الله عليكم بعدى ، يا سلمان لتفتحن الشام ، ويهرب هرقل الى اقصى مملكته ، وتظهرون على الشام ، ولا ينازعكم أحد ، ولتفتحن اليمن ، ولتفتحن هذا المشرق ، ويقتل كسرى فلا يكون كسرى بعده** »(٧٦) .

واحتمال تزوير هذا الكتاب بعيد بل مستحيل لأن النبى — عليه السلام — قيد ذلك الاقطاع بعبارة « **... اذا أعطاه الله الأرض** » ثم قال لهم « **انصرفوا حتى تسمعوا انى قد هاجرت** » وهو ايحاء لهم بأن الكتاب يحتاج الى ما يؤكده ويوثقه فى المدينة بكتاب آخر .

فليس ثمة داعية للتزوير لأنهم يعلمون ان الكتاب لابد من توثيقه فى المدينة ، وهذا ما فعله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اذ قدموا عليه فى المدينة فسألوه أن يجدد هذا العهد ، فكتب لهم كتابا جديدا بنفس المضمون ، وقريبا جدا من صيغة الكتاب السابق(٧٧) . كما أن أبا

---

(٧٦) أنظر امتاع الأسماع ٢٢٣ ٠ وقد روى أن الزبير بن العوام هم بالانصراف عن قتال على فى « الجمل » لما علم ان « **عمار بن ياسر** » يقاتل فى جيش على ، فخاف أن يقتل عمارا وقد قال النبى – صلى الله عليه وسلم – « **تقتلك الفئة الباغية** » ٠
[أنظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٤٨/٣ ٠ وتاريخ الطبرى ٣٨/٥] ٠

(٧٧) مجموعة الوثائق السياسية ١٠١ ٠ وجمهرة رسائل العرب ٧٢ ٠

بكر جـــدد لهم الكتاب فى عهده ، وكتب الى قائد عسكره فى الشام **ابى عبيدة ابن الجراح** يطلب منه حمايتهم وتمكينهم من تنفيذ مضمون الكتاب(٧٨) .

* * *

حالات أخرى من اقطاع النبى عليه السلام :

ومن حالات الاقتطاع وصورها ما اقتطعه النبى — صلى الله عليـــه وسلم — : **بلال بن الحارث** ، وهـــو كثير منه « **معادن القبلية** » ، وهى أرض كبيرة لا زرع فيها تمتد من المدينة الى جهة مكة ، وتلامس أطرافهـــا ســـاحل البحر .

ومنها اقطاع **الزبير بن العوام** « حصن البويلة » . وهى أرض ذات نخل من أراضى مبنى النضير . ومنها اقطاع **عـــوسجة بن حرملة الجهنى** أرضا تسمى « بلكثة » أو « بلاكث » ، وهى فى نفس المنطقة التى يقطنهـــا « **عـــوسجة** » ، وكان من المسلمين المخلصين الأنقياء .

ومنها كذلك اقطاع « **يزيد الحارثى** » وقـــومه الذين دخلوا فى الاسلام فى آخر العام العاشر الهجرى ، وهاجروا من موطنهم فى نجران — مقر بنى الحارث — الى المدينة . وقـــد أقطعهم النبى — عليه السلام — أرضا تسمى « نمرة » وأرضا تتبعها تسمى « وادى الرحمن » .

وهـــذه الاقطاعات كلها مثبتة فى كتب كتبها النبى — صلى الله عليه وسلم — لأصحابها اثباتا لحقوقهم فيها ، وأغلبها كما هـــو ظاهر موضوعه « الأرض » ، ســـواء أكانت أرضا زراعيـــة ، أو أرضا تتخـــذ مكانا للبنـــاء

---

(٧٨) مجموعة الوثائق ١٠٣ . والجمهرة : السابق ٧٤ .

والسكنى . ولا يتسع المقام للوقوف طويلا أمام هـذه الوثائق ، فيكفينا الاشارات السابقة اليها[٧٩] .

* * *

كتب الغنائم

وهى الكتب التى ينص فيها على انصبة معينة لبعض الشخصيات من الغنائم أو الفىء ، وهى غالبا ما تزيد على الحق المتعارف عليه لهم وللآخرين والا ما نص عليه ، وما كان هناك قيمة للكتاب ما دام الحق مضمونا معروفا شأنه شأن الآخرين . ومن هـذه الكتب كتاب قسمة قمح خيبر ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : ذكر ما أعطى محمد رسول الله — صلى الله وسلم — نساءه من قمح خيبر : قسم لهن مائة وسق وثمانين وسقا ، ولاسامة بن زيد أربعين وسقا ، وللمقداد بن الأسود خمسة عشر وسقا ، ولأم رميثة خمسة أوسق . شهد عثمان بن عفان ، وعباس ، وكتب »[٨٠] .

ومثله كتاب « مقاسم أموال خيبر » ، وهو كتاب ينص بصورة مباشرة على انصبة خاصة من طعمة خيبر : فلأبى بكر مائة وسق ، ولعقيل بن أبى طالب مائة وأربعين . . . الخ والكتاب يحدد أنصبة أكثر من اربعين شخصية ، وفيهم عدد من النساء ، كما ذكر الكتاب نصيبا **لبنى جعفر بن أبى طالب**[٨١] ولبيت آخر هم **بنو عبيدة بن الحارث**[٨٢] .

---

(٧٩) انظر د. عون الشريف قاسم : نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ٢٥١ – ٢٦٦ .

(٨٠) مجموعة الوثائق السياسية ٧٢ . والوسق (بفتح الواو وتسكين السين) فى أصل معناه : حمل البعير . وهو : ستون صاعا أو ثلثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز ، وأربعمائة وثمانون رطلا عند أهل العراق على اختلافهم فى مقدار الصاع والمد . [لسان العرب مادة وسق] ، وتجمع على أوسق (كأنجم) ووسوق (كحمر) .

(٨١) جعفر بن أبى طالب هو ابن عم النبى ، وكان على رأس المهاجرين الى الحبشة فى الهجرة الأولى والثانية ، وكان أحد قادة مؤته الثلاثة الذين استشهدوا ، وقد وجد فى جسده أكثر من تسعين جرحا من ضربة أو رمية [مغازى الواقدى ٤٠٣/١] .

(٨٢) هو عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب استشهد يوم بدر سنة ٢ هـ (السابق ٤٣/١) .

ويلحق بهـــذا اللون من الكتب كتابه لبنى عريض اليهـــودى الذين أهـــدوا اليه هريسا فأكلها[٨٣] . فكتب النبى — صلى الله عليه وسلم — لهم كتابا أجرى فيه لهم كل عام عشرة أوسق من القمح ومثلها من الشعير فى كل حصاد ، وخمسين وسقا من التمر[٨٤] .

والكتب التى عرضناها وما شابهها تلتقى كلها فى صـــفة « **المنـــح والاعطـــاء** » للأسباب التى ذكرناها . وواضح أنها تعتمد على معالجـــة الموضوع معالجة مباشرة ، والألفـــاظ فيها محـــددة المـــدلول . أما كتب « الغنائم » فغاصة بالأرقام ، وسنفى هـــذا الجانب حقـــه عندما نعرض لخصائص أسلوب النبى — عليه السلام — فى رسائله .

---

(٨٣) امتاع الأسماع ٤٥٥ .
(٨٤) أنظر نص الكتاب فى « الوثائق السياسية » ٧٣ .

(٥) الكتب الادارية والتنظيمية

وهـذا النـوع من الكتب يصـدق على الكتب التى تتعلق بتنظيم أمور الدولة وادارتها فى حالتى الحرب والسلم . ومنها ما يمكن أن نسميه **بكتب التولية والتنصيب ،** وهى الكتب التى يكلف فيها شخص معين بمهمة معينة كأن يكون واليا أو أمير حرب أو سفيرا أو جابيا أو ما شابه ذلك من الأمور ، والأصـل فى القواعـد السياسية هـو حظـر أن يطلب المسلم السلطة والامارة لنفسه ، وهى « من القواعـد التى قام عليها بناء الدولة الاسلامية ، وتعنى أن الذين يطلبون المناصب القيادية فى الحكومة بوجـه عام ، والخلافة بوجه خاص ، ويجتهدون فى ذلك هم اقل الناس كفـاءة وصلاحية . . . يقول ــ عليه الصلاة والسلام ــ « **انا والله لا نولى على عملنا هـذا أحـدا سأله أو حرص عليه** » . . . وقـوله لعبد الرحمن بن سمرة « **لا تسأل الامارة فانك ان أوتيتها عن مسألة وكلت اليها ، وان أوتيتها عن غير مسألة أمنت عليها** »[٨٥] .

ومن كتب « التولية » كتابه لرفاعة بن زيد الخزاعى الذى قـدم على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى هـدنة الحـديبية ــ أواخر سنة ست ــ ، فأسلم وحسن اسلامه ، وكتب له رسول الله ــ صلى الله عليـه وسلم ــ كتابا الى قـومه ينص فيه على أنه بعثه الى قومه عامة ، ومن دخل فيهم ، ليقوم بمهمة الدعوة الى الله ورسوله . . .[٨٦] .

ومن هـذه الكتب ما فيه تحـديدات وأوامر ادارية وتنظيمية تحـدد بمقتضاها المهام والحقوق منعا للتداخل والالتباس فى الاستخدام والاستعمال

---

(٨٥) المودودى : الحكومة الاسلامية ٢٩٧ .
(٨٦) أنظر نص الكتاب فى جمهرة رسائل العرب ٤٩ .

ككتابه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأكيدر دومه وهو اكيدر بن عبد الملك الكندى وكان ملكا على دومة الجندول ، وكان نصرانيا[87] .

وقد يكون الكتاب اكثر تحــديدا اذ ينظم مســألة معينة ويضع عقوبة قانونية للمخالف ككتابه لثقيف[88] يحظر فيه قطــع عضاه وج[89] وجعــل الجلد عقوبة للمخالف ، وفى حــالة الاسراف فى المخالفة يبعث بالمخالف لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى المدينــة ليرى فيه رأيه .

ومن هــذا النوع ايضا كتاب كتبه رســول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ لأبى ضميرة واهــل بيته يعلن فيه اعتاقهم ، وانهم أهــل بيت من العــرب . ويوصى بهم من يلقــاهم من المسلمين[90] . وقد شفع النبى صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب بقــرار عام هو « لا يفــرق بين والدة وولــدها »[91] .

والفرق بين هــذه الكتب والكتب التشريعية أن هذه الأخيرة تتعلق غالبا بالفروض الدينية وأركان الاسلام وخصوصا الزكاة ، كمــا انها أكثر أطنابا وتفصيلا أما الكتب الادارية فهى تنظم مسألة محــددة على وجــه اليقــين . الا أن هــذا التقسيم يبقى فى النهــاية صناعيا هشا ، لأن الكتب التشريعية فيها ادراة وتنظيم .. كما أن الكتب الادارية والتنظيمية هى فى حقيقتها كتب تشريعية . فهــو تقسيم اعتمد على الطــابع « الغــالب » لا الطــابع المطلق .

---

(٨٧) أنظر نص الرسالة فى فتوح البلدان للبلاذرى ٧٢ .

(٨٨) أنظر جمهرة رسائل العرب ٥٤ .

(٨٩) العضاه : كل شجر عظيم وله شوك . ووج : واد فى الطائف . ويظهر ان هــذا الشجر فى هــذا الوادى بصفة عامة كان ذا فائدة تعم المجتمع ، وفى قطعه اضرار به .

(٩٠) أنظر نص الكتاب والظروف التى ارتبطت به فى « أسد الغابة » ٦٤/٣ .

(٩١) أى فى حالة الاسترقاق .

(٦) كتب التجسس والاستطلاع

اقتضى بعــد نظر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يؤمن الدعوة الى الدين الحنيف والأمان للصحابة والتابعين ، فأدخــل نظام العمــلاء السريين ، اذ كان العباس هو العميل السرى للرسول فى مكة ، والمنــذر بن عمــرو بن مساعد هــو العميل السرى فى نجــد ، وكانت مهمة هؤلاء العملاء جمــع المعلومات ، واطلاع الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ على سـيـر الأمور فى مناطق عملهم . وهى مهمة تشبه الى حــد كبير ما يقوم به السفير فى الوقت الحاضر ، فعليه متابعة الأحداث ، وما يجرى داخل البلد الذى يعمل فيه وسير الأمور ، ثم يرسل تقريرا بذلك لحكومته(٩٢) .

وقد قام العباس بن عبد المطلب بدور جليل فى هــذا المجال فبقــاؤه فى مكة ، وعدم هجرته الى المدينة كان فيه خير كبير للمسلمين ، وحينما سارت قريش لقتال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى أحــد كتب العباس بن عبد المطلب كتابا الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع رجل من بنى غفــار يخبره بذلك ، فقــدم عليه وهو بقباء ، فقرأه عليه ابى بن كعب ، واستكتم أبيــا . ونزل رسول الله ــ عليه السلام ــ على ســعد بن الربيع

---

(٩٢) السفير محمد التابعى : الدبلوماسية فى الاسلام ١٧ .

ونحن لا نوافق الكاتب على استعمال كلمة « عميل » بالنسبة للصحابيين الجليلين لأن الكلمة فى استعمالها الحالى تعطى انطباعا كريها أن يوصف بهــا اذ توحى بالغــدر والخيــانة واستعمال الوسائل غير الانسانية ، وربما كانت الكلمة القــديمة (عين) أنسب وأدق وأدل على المعنى المراد .

كما نخالف الكاتب فى تشبيه « العميل السرى » بالسفير ، فبينهما فرق شاســع ، لا فى الشكل والاجراءات فحسب ، ولكن فى طبيعة المهمة المنوطة بكل منهما مما لا يتسع المقام لشرحه . والمنذر هــو المنذر بن عمرو يصعد نسبة الى ساعدة بن كعب بن الخزرج وليس ابن مساعد كما وهم الكاتب ، وهــو لم يؤد الدور الذى أكده الكاتب وهــو التجسس فى نجــد ، بل استشهد مــع أصحابه على بئر معــونة سنة ٤ هـ .

فأخبره بكتاب العباس ، فقـــال : والله انى لأرجو ان يكون فى ذلك خير[٣٩] .
والكتاب كان من سطر واحـــد فقــط ، ونصه : «**اصـــنع ما كنت صـــانعا اذا وردوا عليـــك ، وتقـــدم فى استعداد التأهب**»[٩٤] .

والكتاب بهـــذه الصورة يوحى ــ ويكاد يقطع ــ بأنه رد على كتاب من النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يخبرنا التاريخ بأمره ، يعـــرض النبى فيه خـــطة معينة على العباس فى حالة زحف قريش على المدينة ، أى أنه رد على كتاب سابق ، أو على الأقل رسالة شـــفوية بعث بها النبى ــ عليه السلام ــ الى العباس ــ رضى الله عنه ــ لم ينقـــل لنـــا التاريخ فحـــواها .

ومن كتب الجاسوسية أو التخابر مع العدو كتاب **حاطب بن أبى بلتعة**[٩٥] ، الصحابى الذى أرسل الى قريش ــ والنبى يتهيأ لفتح مكة ــ كتابا يقول فيه « **ان رســـول الله قد أذن فى الناس بالغـــزو ، ولا اراه يريد غيركم ، وقـــد أحببت أن يكـــون لى عنـــدكم يد بكتـــابى اليـــكم** »[٩٥] ولكـــن الكتاب لم يصل الى قريش فقـــد كشف الله للنبى عليه السلام أمره ، واستطاع على والزبير ــ رضى الله عنهما ــ أن يدركا الرســـول الذى حمل الكتاب وهى امرأة مزنية . وقال حاطب لمـــا اســـتجوبه النبى « يا رسول

---

(٩٣) امتاع الأسماع ١١٤ ·
(٩٤) مجموعة الوثائق ٥٠ ·
(٩٥) حاطب بن أبى بلتعة صحابى جليل شهد بدرا ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثق به ويقـدره ، لذا اختاره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحمل كتابه الى المقوقس عظيم القبط ، وقـد دار بينهما حـوار ، بعـده أعجب به المقـوقس وقال له « أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم » · ولا شك أن ما فعله حاطب باخبار قريش باستعداد النبى ـ عليه السلام لحربهم ـ غلطة فى لحظة من لحظات الضعف البشرى لا تسوغ لبعض المتفرنجين من الكتاب أن يخوضوا ويشككوا فى أخلاق الصحابة · والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى أن للرجل من الماضى المجيد ما يشفع لـه هـذه الزلة ، وخاصة أنها كانت الأولى فى حياته · وربمـا رأى النبى أن هـذه الرسالة لا قيمة لهـا من الناحية العملية لأن قريشا بعـد مساعدتها لبكر فى قتال خزاعة أحست أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لن يسكت عن خرقها لمعاهـدة الحديبية فبعثت بأبى سفيان يأخـذ جـوارا من الرسول · [انظر أسد الغابة ١/٤٣١ ـ ٤٣٣] ·
(٩٦) امتاع الأسماع ٣٦٢ ·

الله ، لا تعجل على ، أما والله انى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرءا ليس لى فى القـــوم من اصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهـــرهم ولد واهل ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمـــون بها أهليهم وأموالهم ، فأحببت اذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بهـــا قرابتى ، ولم افعله ارتدادا عن دينى ، ولا رضا بالكفـــر بعـــد الايمـــان » .

ونظر النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ الى تلك الجناية التى ارتكبها بحسن نية . وهى تعـــد فى الشرائع الوضعية من الخيـــانة العظمى للدولة ، والعقوبة التى تستحقهـــا هى عقوبة القتل . ولكنه نظـــر الى من حـــوله من أصحابه فقال لهم : « انه قد صدقكم ، ولا تقـــولوا له الا خيرا » .

فقـــال عمر « يا رسول الله ، دعنى فلأضرب عنقـــه فان الرجل قد نافق » .

فقال النبى ـــ صلى الله عليه وسلم : « انه قـــد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمـــر لعل الله قد اطلع على أهل بدر يوم بـــدر ، فقـــال اعملوا ما شئتم فقـــد غفرت لكم » .

وهذا يدل على أن عقوبة التجسس القتل ، لأن النبى ـــ عليه السلام ـــ أرشد الى أن علة تركه أمر عمر بقتل حاطب انه من أهل بدر ، فدل على أن من فعل فعله ، ولم يكـــن من أهل بدر يستحق القتل .

وقد رأى النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بعد هذا أن يعفو عن حاطب بمـــا له من حق العفو ، وراعى فى هـــذا تلك الأحوال التى اقترنت بجنايته ، فخففت من أمرها وجعلت العفو أولى من غيره فيهـــا[٩٧] .

---

(٩٧) انظر عبد المتعال الصعيدى : القضايا الكبرى فى الاسلام ٤٠ .

وقــد يلحق بهــذا النوع من الكتب ما يكون تكليفا بمهمة تجسسية أو استطلاعية معينة ومثالها ما جاء فى امتاع الأسماع ص ٥٦ من أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كلف ابى بن كعب بكتاب فى قطعة من ادم وطواه دون أن يعرف أحــد ما فيه الا النبى وكاتبه . وسلمه لعبد الله بن جحش ومعه جماعة من المسلمين وأمره أن يسير ومن معه فى طريق عينها له وأمره الا يفتح الكتاب الا بعــد مسير ليلتين .

وسار وفتح الكتاب فاذا نصه « **سرحتى تاتى بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، ولا تكرهن أحــدا من أصحابك على السير معك ، وامض لأمرى فيمن تبعــك حتى تاتى بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، فترصــد بهــا عير قريش** » .

* * *

ونلاحظ أن كتب التجسس هى اقل الكتب وجودا ، وربما كانت هى اقل الكتب ورودا فى عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — . كما نلاحظ انه ليس بين كتب النبى — عليه السلام — كتاب واحــد نقــل الينا يدور حول هــذا الموضوع ، كأن يكلف شخصا معينا بأن يقوم بهذه المهمة ، مهمــة التجسس فى أرض العــدو ، وان كان كتاب العباس — رضى الله عنه يوحى بأن هناك كتــابا من النبى يسبق كتاب العباس هــذا .

(٧) الكتب الشخصية أو الخاصة

مفهوم الرســـالة الخاصـــة :

أشرنا من قبل الى أن الرسالة الشخصية او الاخـــوانية أو الرسالة الخاصة هى الرسالة التى تتناول موضوعا خاصا بين شخصين تربط بينهما — غالبا — علاقة انسانية أو علاقة نسبية كالمصاهرة والأخوة والأبوة كالرسائل بين الأصدقاء والأقارب فى الموضوعات الأسرية والمناسبات السارة أو المحزنة وما شابه ذلك . وهى تأتى مقابلة للرسالة العامة او الديوانية التى تتعلق بأمر من أمور الدولة أو الشريعة او مصالح الناس فى الحرب والســـــلم .

والرسالة تكون خاصة او شخصية اذا ما دارت حول موضوع شخصى حتى لو كان طرفاها أو اطرافها شخصيات عامة كرؤساء وقـــواد ووزراء لأن هؤلاء جميعا لهم جانبهم الشخصى وحياتهم الخاصة التى يشبهون فيها جميع النـــاس(٩٨) .

ومن ثم نرى أن الصواب قـــد جانب احـــد الباحثين(٩٩) حين اعتبر من المراسلات الخاصة ما كتبه النبى — صلى الله عليه وسلم — الى عماله وأمراء سراياه ، وقـــد تناولت أمورا توجيهية هـــدفها تفقيه أولئك العمال بأمور الدين ، وسياسة الرعية وجباية ما عليهم من صدقة أو جزية وغير ذلك . ومنها الرسائل الجوابية الموجزة التى تعرض الحلول الناجعـــة ،

---

(٩٨) هناك أيضا ما يسمى « بالرسائل الأدبية » ، وهو لون من الوان الكتابة الانشائية التى يحررها الكاتب الى غيره لغرض من الأغراض ، فتشمل الخطـاب كمـا تشمل الجـــواب ، وتشمل المقالات الانشائية كما تشمل المناظرات الأدبية . [د. محمد نبيه حجازى : روائع الأدب فى عصور العربية الزاهرة ٢٣٤/١] .

(٩٩) غانم جـواد : الرسائل الفنية ٧٥ — ٧٩ .

والأسلوب الذى يجب أن يتبعه قائد الجيش ازاء من يعتنق الدين الجـديد ، كرسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى خالد بن الوليد جـوابا عما كتبه اليه باسلام بنى الحارث بن كعب . ومنها كذلك الرسائل التى بعث بهـا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى بعض المرتدين والمشركين أو الى من آزرهم ولم يعتنق الاسلام بعـد . وقريب من هـذا الضرب ما كتبه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى أكثم بن صيفى يعرفه بدعوة الاسلام ومبادئه السـامية .

* * *

والحقيقة أن كل هـذه الرسائل تعتبر رسائل عامة لأنها تدور حول أمور ومسائل تتعلق بالعقيدة والشريعة والادارة والحرب . وكل ما ذكره الكاتب من أمثلة ينتسب تماما الى الأنواع والألوان التى عرضنا لهـا فى الصفحات السابقة وخصوصا الكتب التنظيمية والادارية ، وكتب الدعوة الى الاسلام . وهى لا تختلف عنها فى موضوعاتها والقيم التى تناولتها .

* * *

رسـالة الى معـاذ فى التعزية :

ولعل الرسالة الاخـوانية الخاصة الوحيدة التى نقلها لنـا التاريخ هى رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى معاذ بن جبل يعزيه فى ابن له مات وفيه يقول « **.... فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ، ورزقنا واياك الشكر ، ثم ان أنفسنا وأهلينـا وموالينا من مواهب الله السنية ، وعـوارفه المستودعة ... وكان ابنك من مواهب الله الهنية ، وعـوارفه المستودعة ، متعك به فى غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير ...** »[100] .

---

(١٠٠) صبح الأعشى ٨٠/٩ .

ويشكك غانم جـواد فى الرسالة بقوله « ان التحقيق العلمى التاريخى ينفى صحة نسبة هـذه الرسالة للنبى »(١٠١) ولا يقـدم أى دليل على ذلك الا « اختلاف المؤرخين حـول شخصية ابن معاذ عبد الرحمن ، وهل ولد لمعاذ غيره . والشائع أن معاذ قـد ولد له ، وأن ابنه مات فى الشام بطاعـون عمواس فى خلافة عمر . . »(١٠٢) .

ولكن اختلاف المؤرخين فى شخصية ابن معاذ عبد الرحمن لا ينفى الرسالة بأية حال حتى لو تأكد على وجـه اليقين أن عبد الرحمن بن معاذ قـد مات فى طاعون عمواس فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فليس هناك ما يمنع أن تكون الرسالة تعزية لمعاذ فى ابن غير عبد الرحمن فالرسالة لا تشير الى اسم الابن المعزى فيه .

وقـد يشك بعضهم فى الرسالة لأنه ليس فى الوثائق النبوية ما ينتسب الى مثل هـذا النوع من الرسائل . ولكن عـدم وجود غيرها لا ينفيها . ولا غرابة أن يعزى « النبى الانسان » صحابيا جليلا كان النبى يعتز به ، ويعترف له بالفضل والعلم(١٠٣) .

---

(١٠١) الرسائل الفنية ٧٧ .

(١٠٢) السباق نفس الصفحة .

(١٠٣) ولاه النبى – صلى الله عليه وسلم – على اليمن ، فلم يزل باليمن حتى توفى النبى . وقـد جاء فى الأثر قـول رسول الله – صلى الله عليه وسلم « ... واعلمهم بالحـلال والحرام معاذ بن جبل » . وقال جابر بن عبد الله – رضى الله عنه – « كان معاذ بن جبل من احسن الناس وجها ، واحسنه خلقا ، واسمحه كفا .. » . وقال ابن مسعود « ان معاذ بن جبل كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يكن من المشركين » . [انظر أسد الغابة ٥/١٩٤ – ١٩٧] .

(١٠٤) سنعرض لذلك بالتفصيل فى الفصل الأخير من هـذه الدراسة . وهـو الفصـل التـالى .

(٨) الكتب الجوابية

وهى الرسائل التى لم تكتب ابتداء اعتمادا على غرض معين ، ولكنها تكتب ردا على رسالة وجهت للرسول — صلى الله عليه وسلم — فارتباطها موضوعيا يكون بالرسالة الأولى .

وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — وهـو الذى أدبه ربه واحسن تأديبه يحرص على أن يجيب عما يبعث اليه من الكتب حتى ما خبث منهـا وأساء الى الدين والخلق ، فقـد كتب اليه مسليمة الكذاب كتابا من هـذا النـوع فكان رده « **بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى مسليمة الكذاب . سلام على من اتبع الهـدى . اما بعـد ، فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** »(١٠٥) .

ومن كتبه الجوابية رده على خالد بن الوليد ، وكان خالد قـد ارسـل اليه كتابا يخبره فيه باسلام بنى الحارث بن كعب ، ويسأل عما يفعل ، فكان رد النبى — عليه السلام — ، وفيه يطلب منه أن يبشرهم وينذرهم ، وأن يقبل الى المدينة ، ويقبل معه وفـدهم(١٠٦) .

ويلاحظ أن النبى — صلى الله عليه وسلم — يذكر فى رده خلاصـة لكتاب خالد المردود عليه تذكيرا بمضمونه لأن وصول الكتاب يستغرق وقتا طويلا اذ كانت مساكن بنى الحارث فى نجران .

وقـد يمتد حبل التراسل فيكون هناك ما يمكن أن نسميه « **رد الرد** » . ومن نماذجه رد النبى — صلى الله عليه وسلم — على كتاب أرسله اليـه المنذر بن ساوى ملك البحرين ردا على كتاب النبى — صلى الله عليه وسلم — يدعوه فيه وقومه الى الاسلام ، والذى حمله اليه العلاء بن الحضرمى فى العام السادس للهجرة .

---

(١٠٥) سيرة ابن هشام ١٨٩/٤ . وانظر كذلك كتاب ابى سفيان ورد النبى عليـه . [امتاع الأسماع ٢٣٩ — ٢٤٠] .

(١٠٦) انظر نص الكتاب فى صبح الأعشى ٣٧٦/٦ .

(٩) كتب الآخرين

كانت رسائل النبى — صلى الله عليه وسلم — هى أكثر ما نقله لنـــا التاريخ من وثائق ، فهى فى مجموعها أكثر من الرسائل والعهود التى كتبها غيره من المسلمين أو الكفار أو المرتدين ، **ويرجع ذلك الى أسباب متعـــددة أهمهـــا :**

١ — نشوء الدولة الجـــديدة وما يقتضيه ذلك من الكتب والرســـائل والمعاهـــدات ، على ما بينا سابقا .

٢ — الاهتمام بكتابة السنة النبوية — ومنها كتبه — وهى تأتى ف هـــذا المقام بعـــد كتاب الله . فكان من الطبعى أن تنال كتبه — صلى الله عليه وسلم — من الاهتمام حفظا وتسجيلا اكثر مما تنال كتب الصحابة ، وكتب معاصريه من غيرهم .

٣ — كثير من هـــذه الكتب كان عهود أمان واقطاعات تنص على حقوق معينة لأصحابها ، ومن ثم حرصوا على حفظها وتوارثها جيلا بعـــد جيل .

* * *

وكتب الآخرين نوعان :

١ — كتب انشائية .

٢ — كتب جـــوابية .

واعنى بالنوع الأول ما كتبه أصحابه ومعاصروه ابتداء دون ارتبـــاطه بكتاب سابق عيه . مثل كتاب خالد بن الوليد الى النبى — صلى الله عليه وسلم — يخبره باسلام بنى الحارث — وكان النبى — عليه السلام — قـــد

بعثه اليهم فى العام العاشر يدعوهم الى الاسلام وفيه يخبره بأنهم قد أسلموا وأنه « مقيم بين أظهرهم ، يأمرهم بما أمرهم الله به ، وينهاهم عما نهاهم الله عنه ، ويعلمهم معالم الاسلام ، وسنة النبى — صلى الله عليه وسلم — ... »(١٠٧) .

ومن كتب غير المسلمين كتاب مسيلمة الكذاب الى النبى — صلى الله عليه وسلم — فى أواخر العام العاشر الهجرى ونصه :

« من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله :

سلام عليك ، أما بعد فانى قد أشركت فى الأمر وان لنا نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون »(١٠٨) .

ومن هذه الكتب عهود مثل **عهد العلاء بن الحضرمى لأهل البحرين**(١٠٩) . وهو عهد موجز مباشر يبرز شروط الصلح ومنها مقاسمتهم التمر ودفع الجزية دينارا فى العام من كل حالم .

أما الكتب الجوابية فهى ما كانت ردا على رسائل سابقة ، ولم تنشأ ابتداء : كالرسائل التى كانت ردودا على كتب للنبى عليه السلام مثل رد كل من النجاشى والمقوقس والمنذر بن ساوى وهوذة بن على .

***

وبعد أن سرنا هذا الشوط مع الرسائل فى عهد النبوة المحمدية ، وقد استغرقت رسائل النبى — عليه السلام — أغلب هذه المسيرة التى كان هدفها الدراسة الموضوعية لهذه الرسائل ، والوقوف مع مضامينها وقيمها ، وما أحاط بانشائها من ظروف ... بعد هذه المسيرة بقى علينا أن نقف وقفه متأنية أمام هذا التراث لنستخلص منه ملامحه الجمالية ومعالمه الفنية .

---

(١٠٧) أنظر نص الكتاب فى صبح الأعشى ٦/٤٦٥ .
(١٠٨) البلاذرى : فتوح البلدان ٩٧ .
(١٠٩) البلاذرى السابق ٨٩ .

الفصل الرابع

الملامح والسمات الفنية

الفصاحة النبوية : مصادرها وطبيعتها[1]

جاء عصر صـــدر الاسلام ليضيف الى المنابع الأدبية منبعا غنيا ثرارا هـــو القرآن الكريم ووقف الجميع امام هـــذا المنبع مبهورين :

١ ــ فهو يمثل قمة البلاغة العربية التى لم يعهد العرب مثلها من قبل ، مع أن لغته هى لغتهم ، وحروف كلماته هى حروف كلماتهم .

٢ ــ وهـــو موضوعيا يحمل من القيم والمبادىء ما احـــدث أكبر تحول اجتماعى وسياسى وخلقى فى تاريخ البشرية .

٣ ــ وأهم دواعى الانبهار والدهشة أن الذى أتى بهـــذا الكتاب رجل أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وهـــذا فى ذاته أقطع الأدلة على أن القرآن من عند الله ، وأنه ليس بقول بشر .

وكانت البلاغة القرآنية بسحرها البيانى تتسلل الى القلوب فتعطفها الى الايمان ، وتخرجها من الظلمات والشك الى النور والحق واليقين[2] .

---

(١) عرضنا للسمات والملامح الفنية لأسلوب الرسائل يعنى تقييم أسلوب هذه الرسائل فى عصر النبوة .. وقد رأينا فى الفصول السابقة انه كان هناك رسائل للنبى صلى الله عليه وسلم- وغيره .. ولكن اغلب هذه الرسائل أو ما نقل الينا منها كان للرسول - عليه السلام - لأسباب ذكرناها من قبل .

لذلك سيكون حديثنا فى هـذا الفصل يعتمد على النظر فى خصـائص أسلوب « الرسائل النبوية » بصفة اساسية . ولكن ذلك لا يعنى اغفال خصائص رسائل الآخرين لأن بحثنا عن « الرسائل فى عصر النبوة » لا رسائل النبوة .

(٢) اقـرأ فى ذلك روايتين مختلفتين عن اسـلام عمر بن الخطاب ، وكلتاهما تلتقيان فى ان العامل الأساسى فى جذبه الى الاسلام هو قراءته بعض آيات من القـرآن الكـريم أو استماعه له . [السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٣٢ - ٢٣٧] .

ومن الطبيعى أن يكون أول المتأثرين بالبيان القرآنى هـو حـامل الرسالة محمد بن عبد الله — عليه السلام — فاستقى من هذا المعين الكريم ، وجرت الكلمات القرآنية على لسانه ، وجاءت البلاغـة النبوية فى المرتبـة الثانية من البلاغة القرآنية ، ولكن اغرب الأشياء — كما يقول المرحـوم مصطفى صادق الرافعى : أنك اذا قرنت كلمة من البلاغة النبوية الى مثلها مما فى القرآن الكريم . رأيت الفرق بينهما فى ظاهره كالفرق بين المعجزة وغير المعجز سواء[٣] .

ومما رآه العلماء فى أسباب فصاحة محمد — صلى الله عليه وسلم — أنه كان قريشيا هاشميا ، وقريش من أفصح قبائل العرب ، وبلغتها نظمت المعلقات ، وعلى لسانها دار حـديث الشعراء فى عكاظ .

واضافة الى هـذه الفصاحة الموروثه ترشف محمد فصاحة أخرى فى بنى سعد موطن رضاعه وفى بنى زهرة موطن أخواله ، وفى بنى أسـد أهل زوجته السيدة خـديجة ، وفى بنى عمرو — وهم الأوس والخزرج موطن مهاجرته الى المدينة المنورة[٤] .

ومن مصادر فصاحته وأسبابها المهمة « قـوة الفطرة »[٥] وقـد كانت هـذه الفطرة — كما وصفها الرافعى — توفيقا من الله وتوقيفا ، اذ ابتعثه للعرب وهم قـوم يتادون من السنتهم ، ولهم المقامات المشهورة فى البيان والفصاحة ، ثم هم مختلفون فى ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم ... فمنهم الفصيح والأفصح ، ومنهم الجافى والمضطرب ... فكان — صلى الله عليه وسلم — يعلم ذلك على حقه ، كأنما تكاشفه أوضاع اللغـة بأسرارها ، وتبادره بحقائقها ، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون الا

(٣) مصطفى صادق الرافعى : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٣٦ .
(٤) د. بكرى شيخ أمين : ادب الحديث النبوى ١٠٢ .
(٥) انظر السابق نفس الصفحة .

أفصحهم خطابا ، وأسدهم لفظا ، وابينهم عبارة(٦) .... وقد فضلهم بقوة الفطرة واستمرارها وتمكنها ، مع صفاء الحس ونفاذ البصيرة واستقامة الأمر كله(٧) .

واذا كان القرآن يمثل « القمة البيانية » باطلاق ، فان السنة النبوية تمثل قمة البيان البشرى على الرغم من أمية صاحبها(٨) حتى أنك اذا قرنت كلمة من البلاغة النبوية الى مثلها مما فى القرآن ، رأيت الفرق بينهما فى ظاهره كالفرق بين المعجز وغير المعجز سواء ، ورأيت كلامه — صلى الله عليه وسلم — فى تلك الحال خاصة مما يطمع فى مثله ، وأحسست أن بين نفسك وبينه صلة تطوع لك القدرة عليه ، وتمد لك أسباب المطمعة فيه ، بخلاف القرآن ، فانك تستيئس من جملته ، ولا ترى لنفسك اليه طريقا البتة ، اذ لا تحس منه نفسا انسانية ، ولا اثرا من آثار هذه النفس ، ولا حالة من حالاتها حتى تأنس الى ذلك على التوهم ، ثم تتوهم الطمع والمعارضة من هذه الأنسة ، فتمضى عزمك ، وتقطع برأيك ، وتبت القول فيه — كما يكون لك فى قراءة الكلام الانسانى ، فان جميع هذا الكلام الآدمى منهاج ، وبجملته طريق ، وحدود البلاغة التى تفصل بعضه عن بعض ، كلها مما يوقف عليه بالحس والعيان ، ويقدر فرق ما بين بعضها الى بعض مهما بلغ من تفاوتها واختلافها فى السبك والصنعة والغرابة(٩) .

وقد وصف الجاحظ بيان الرسول — صلى الله عليه وسلم — وصفا جامعا اشتهر على مدار التاريخ فقال « هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان — كما قال الله تبارك وتعالى — قل يا محمد وما أنا من المتكلفين . فكيف

---

(٦) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣١٥ .
(٧) السابق ٣١٧ .
(٨) جابر قميحة : أدب الخلفاء الراشدين ١٢ .
(٩) الرافعى : السابق ٣٦٦ .

وقـــد عاب التشديق وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قـــد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق . وهـــذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلة عـــدد الكلام ، ومع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قـــدم ولا بارت له حجـــة ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطول بالكلام القصير ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج الا بالصدق ، ولا يطلب الفلج الا بالحـــق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطىء ولا يعجل ، ولا يسهب ، ولا يحصر . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أصـــدق لفظا ولا أعـــدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه ولا أبين فى فحواه من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم(١٠) .

* * *

هـــذه هى الفصاحة النبوية ، وذلك هـــو البيان المحمدى بصـــفة عامة سواء اكان خطابة أم كتابة ، وهـــو الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه . والبلاغة النبوية ومظاهرها فى خطب الرسول وكتبه وحـــديثه مقام أكبر من حـــدود بحثنا . لكن كان لابد من التعرف على حـــدود البلاغة النبوية ومصادرها بشكل اجمالى . ثم بعـــد ذلك نرى أبعاد كل ذلك ومدى توفره فى رسائله ، عاطفين كذلك على « رسائل الآخرين » فى العصر النبوى بقـــدر ما نقـــل التاريخ الينا .

---

(١٠) البيان والتبيين ٢/٨ .

منهج الرسالة النبوية

هل كان للنبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ منهج خاص فيما يتعلق بشكل كتبه ورسائله ، أو بتعبير آخر أكان له ما يمكن أن نسميه « تقاليد كتابية » فى طريقة بدء الرسالة وانهائها ونوعية العبارات المستخدمة فى مخاطبة الآخرين وصورة الاشهاد ... الخ وسنحاول فى السطور الآتية الاجابة عن هذا السؤال . وباستقراء كتب الرسول ورسائله وعهوده نلاحظ فيها ـــ من الناحية الشكلية والمنهجية المعالم الآتية :

١ ـــ افتتاح الرسالة بالبسملة :

نقل بعضهم عن الشعبى أن النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ كان يفتتح كتبه بعبارة باسمك اللهم . ثم نزل قول تعالى « **بسم الله مجراها ومرساها** »(١١) فكان الافتتاح « باسم الله ما شاء الله » ثم نزلت « **قل أدعوا الله أو ادعوا الرحمن** »(١٢) فكتب « باسم الله الرحمن » فجرت بذلك ما شاء الله . ثم نزلت « **انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم** »(١٣) .

وهذا يعنى أن افتتاح رسائل رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من **بالمراحل الآتية :**

(أ) باسمك اللهم . وهى العبارة التى كانت سائدة فى الجاهلية .

(ب) باسم الله ما شاء الله .

(جـ) باسم الله الرحمن .

(د) بسم الله الرحمن الرحيم .

---

(١١) هود ٤١ (مكية) .
(١٢) الاسراء ١١٠ .
(١٣) النمل ٣٠ . أنظر الكتانى التراتيب الادارية ١٤٠/١ .

والمراحل الثلاث الأخيرة التى يمكن ان نسميها مراحل اسلامية ارتبطت بنزول آيات قرآنية كانت هى السبب فى انتقال النبى — صلى الله عليه وسلم — من افتتاح الى آخر حتى استقر الأمر على بسم الله الرحمن الرحيم .

وهو كلام ظاهر الافتعال — من وجهة نظرنا — لأسباب متعددة :

أولها : أن هذه الآيات كلها مكية .. وارتباط تطور الافتتاح بها يعنى أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كتب عددا كبيرا من الرسائل قبل الهجرة لأن مفهوم الرواية يعنى أن كل « افتتاح » يمثل مرحلة اطردت فيها الكتابة على هذا النحو . وهذا ما لم يقل به احد . فالبداية الحقيقية لكتابة الرسائل كانت بعد الهجرة وربما سبق ذلك رسالة أو رسالتان منهما عهد النبى لسراقة بن مالك بسوارى كسرى . ولم يرو بنصه ، والثانى بعث به النبى الى مصعب بن عمير مبعوث النبى الى المدينة يطلب منه اقامة صلاة الجمعة بالمسلمين[١٤] .

وثانيها : أن البسملة كانت معروفة للنبى — صلى الله عليه وسلم — وللمسلمين قبل نزول هذه السور كلها وان اختلف بشأنها على ثلاثة أقوال هى :

(أ) أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها وهو قول مالك .

(ب) أنها آية من كل سورة ، وهو قول عبد الله بن المبارك .

(جـ) أنها آية من سورة الفاتحة فقط وهو قول الشافعى وينقل عنه قول آخر وهو أنها آية من كل سورة[١٥] .

---

(١٤) حميد الله : مجموعة الوثائق ٣٥ . وهى الرسالة الوحيدة التى أتى بنصها قبل الهجرة وان كان قد أشار الى عهد النبى لسراقة وذكر أن الكتاب لم يرد له نص .

(١٥) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ٨١/١ وانظر سيد قطب فى ظلال القرآن ٢١/١ .

والقول الأول — قول الامام مالك — ليس عليه دليل . والخلاف يكاد ينحصر فى الرأى الأول والثانى . فلو أخـذنا بالقول الثانى وانها آية من كل سورة لكان هـذا يعنى أن المسلمين يعرفون البسملة من اول ظهـور الاسلام أى من ابتداء نزول القرآن بسورة العلق . وعلى الرأى الثانى وهو أن البسملة آية فى أول الفاتحة فقط يترتب عليه أيضا معرفة البسملة قبل الآيات السابقة التى وردت فى هود والاسراء والنمل لأن سورة الفاتحة سبقت فى النزول هـذه السور كلها باتفاق(١٦) .

ويكاد يطرد البدء بالبسملة فى اغلب كتب الرسول — صلى الله عليه وسلم — وعهوده ورسائله الى أصحابه وغيرهم من المشركين واليهـود والملوك الا اقـل القليل من هـذه الكتب ككتابه الى أبى سفيان ردا على كتابه اليه أيام الخندق(١٧) وربما سقطت البسملة من الكتاب أو محيت بفعل الزمن .

والخلاصة أن البسملة تكاد تكون سمة فارقة فى رسائل النبى — صلى الله عليه وسلم — فى هـذا العهد ولم يرد عنه فى رواية صحيحة أنه استهل واحـدا من كتبه بعبارة « باسمك اللهم »(١٨) كما لم يرو عنه أنه اسـتهل كتبه بجزء من البسملة مثـل باسم الله ، أو باسم الرحمن أو باسم الله الرحمن « وانما البسملة كاملة أو محذوفة برمتها »(١٩) .

❋ ❋ ❋

---

(١٦) فسورة الفاتحة هى رابعة السـور المكية نزولا بعد المدثر والمزمل والعلق على الترتيب .

(١٧) سجلنا نص الكتابين فى المختارات بآخـر الكتاب .

(١٨) ولا يرد على ذلك بما حدث يوم الحديبية واستهلال العهـد بهذه العبـارة ، فذلك ظـرف خاص وهو لا ينقض القاعدة . وقبول النبى — عليه السلام — ذلك يدل على مـرونة وبعـد نظـر كما عرفنا من نتـائج هذه المعاهـدة فى الفصل السابق .

(١٩) د. نصـار : نشـأة الكتابة الفنية ٣٨ .

هـذا عن استهلال النبى — صلى الله عليه وسلم — كتبه بالبسملة أما المشركون فى عهده فكانوا يستهلون كتبهم بعبارة **باسمك اللهم** كما نرى فى كتاب ابى سفيان الى النبى فى أيام الخندق « **باسمك اللهم . فانى احلف باللات والعزى** .... » .

ويظهر انه كان تقليدا متبعا فى كتب الجاهليين ومعاهداتهم يدل على ذلك اصرار سهيل بن عمرو على ان يستهل صلح الحديبية بها بدلا من « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وبعض الكتب التى نقلت الينا من العصر الجاهلى فيها هـذا الاستهلال « باسمك اللهم » كما نرى فى كتاب عمرو بن هند الى عامله بالبحرين وهو ما يسمى بصحيفة المتلمس يأمره فيها بقتله[20] ، وكتاب التحالف بين عبد المطلب بن هاشم وبين خزاعة[21] ولكن بعض الكتب المنقولة لنا فى الجاهلية لم تلتزم هـذا الافتتاح .

٢ — ذكر طرفى الكتاب :

وهى لازمة من لوازم الكتب جميعا تستوى فى ذلك كل ألوان الكتب على اختلاف موضوعاتها وأطرافها :

(أ) ففى المعاهدات وكتب الصلح : « هـذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب .... » . هـذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو » .

---

(٢٠) جمهرة رسائل العرب ١٢/١ .

(٢١) السابق ٢٥/١ .

وقد نقل صاحب الجمهرة قصة خرافية طريفة . عن بعض المصادر القديمة فى سبب التزام العرب عبارة باسمك اللهم (هامش ١٣) .

(ب) فى كتب الاقطاع والأمان : « هـــذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله للداريين .... » . « هـــذا كتاب من محمد رسول الله لبنى صخرة بأنهم آمنون .... »

وفى كتبه الى الملوك والحكام والعمال : « من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم .... » .

ونسجل فى هـــذا المقام ملاحظتين :

الأولى : أن النبى — صلى الله عليه وسلم — يذكر اسمه دائما قبـــل الطرف الآخر .

والثانية : أنه يذكر دائما اسمه بوصف الرسالة أو النبوة « من محمد رسول الله .... » — « من محمد نبى الله .... » ونادرا ما جمع بين وصف النبوة والرسالة كما نرى فى رده على خالد بن الوليد « من محمد النبى رسول الله الى خالد بن الوليد .... »[٢٢] .

أما الكتب الموجهة اليـــه — عليه الصلاة والسلام — فهى بالنظر الى أطرافها أنواع :

فمنها ما لا يذكر الطرفين ككتاب أبى سفيان اليه . ورد المنذر بن ساوى على كتابه . ورد هـــوذة على كتابه الذى يدعوه فيه الى الاسلام .

ومنها ما يذكر الطرفين ويؤخر اسم الرسول — عليه السلام — ويقدم نفسه عليه تبجحا وسوء أدب ككتاب مسليمة الكذاب اليه بعد ردته[٢٣] .

(٢٢) أنكر القارىء أن النبى - صلى الله عليـه وسلم - لم يكتب اسمه مجـردا « محمد ابن عبد الله » الا مـرة واحـدة وكان ذلك فى صلح الحديبية . وقد شرحنا فى الفصـل السابق تعليـل ذلك وتفاصيل ما حـدث فى هـذا اليوم .

(٢٣) ذكرنا الكتاب فى المختارات .

ومنها ما يذكر الطرفين ويتقـــدم رسول الله (المرسل اليه) على نفسه ويكون هؤلاء غالبا من المسلمين ككتاب خالد اليه « لمحمد النبى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من خالد بن الوليد . . . . » — ورد النجاشى عليه « الى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم بن ابجر . . . . الخ وواضح أن الدافع الى ذلك هو تبجيل مقام النبى وتعظيم مقام النبوة فيه .

٣ — التحيــة بالســلام :

كانت التحية بالسلام لازمة من لوازم رسائل النبى — صلى الله عليه وسلم — المبعوثة الى الآخرين دون غيرها من الكتب والعهود . ونلاحظ أن التحية بالسلام ترد ترتيبا بعــد البسملة وذكر طرفى الرسالة أو اطرافها . . ولكنها لم تأخــذ صورة واحــدة . . **بل تعــددت صورها تبعا لشخصية من ترسل اليه الرسالة على النحو التالى :**

(ا) فاذا كان من أرسلت اليه الرسالة مسلما استعملت عبارة **ســلام عليــك** . وغالبا ما ترتبط عبارة السلام بحمد الله كما نرى فى رده على خالد بن الوليد وفى كتابه الى معاذ بن جبل يعزى فيه ابنه « . . . . **سلام عليك فانى أحمد اليــك الله الذى لا اله الا هــو . . . .** » .

(ب) واذا كان من ترسل اليــه الرسالة غير مسلم فتستخدم عبــارة « **سلام على من اتبع الهــدى . . . .** » ولا يتلو العبــارة ذكر لحمد ، كما نرى فى كتابه الى المقوس وهرقل . ولكن قــد تكون أكثر تفصيلا كما نرى فى كتابه الى الحارث بى أبى شمر الغسانى « **سلام على من اتبع الهــدى وآمن بالله وصــدق . . . .** » .

أما التعبير الثالث لهــذه الفئة فهو « **سلم أنت** » واستخدمه النبى — صلى الله عليه وسلم — فى كتابه للنجاشى .

وقـــد يقترن بحمد الله كما نرى فى كتابه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ للمنذرين ساوى ملك البحرين « **سلم أنت فانى احمد اليك الله الذى لا اله الا هـــو ....** » .

ومما يدل على أن عبارة « **سلام عليكم** » كان النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يختص بها المسلمين دون غيرهم . أن بعض هؤلاء المشركين حينما أجابوه على كتبه اليهم غير العبارة فى كتبه التى رد بها على هـــذه الردود الى « **ســـلام عليـــك** » ما نرى فى رده على « رد النجاشى » ، ورده على « رد المنذر بن ساوى » وقـــد ابدى كل منهما اقتناعه بالاسلام ودخوله فيـــه .

(جـ) وندر أن نجـــد من كتبه ما فيه حمد الله دون سلام ككتابه الى أكثم بن صيفى[24] .

(د) وقـــد تخلو الرسالة من السلام ، ولكن هـــذا يحـــدث قليلا كما نرى فى رده على المنذر بن ساوى وكتابه الى أكيدر دومة بعـــد اســـلامه .

(هـ) وقـــد تخلو الرسالة من البسملة والحمد لله ، ولا تحمل الا صلب الرسالة ولا يكون ذلك الا فيما يمكن أن نسميه « الرسائل السرية » ولهـــا طابع العجلة وتشبه « الأوامر العسكرية » فى وقتنـــا الحاضر . ككتابه الذى سلمه عبد الله بن جحش وأمره الا يفتح الكتاب الا بعـــد السير الى مكان معين وفتحه فاذا به « أمر مباشر » بلا مقـــدمات الى عبد الله بن جحش بأن يرصد عير قريش[25] .

(٢٤) جمهرة رسائل العرب ٦٩ . وقد أرسل اليه النبى – صلى الله عليه وسلم – هـذا الكتب يعرض فيه دعوة الاسلام ، فسار اليه ولكنه مات فى الطريق .

(٢٥) انظر الكتاب فى امتاع الأسماع ٥٦ .

(و) أما الكتب التى كانت ترد من الكفار الى النبى وأشهرها كتاب أبى سفيان اليه فكانت تخلو تماما من السلام ، وهذا طبيعى لأنها كانت تعبر عن نفوس حانقة ناقمة حاقدة تتمسك بالشرك والضلال .

٤ — أما بعد :

وكانت تذكر بعد السلام .. وقد وردت كثيرا فى كتب الرسول — عليه السلام — وكذلك الأمر فى خطبه[٣٦] ولكنها لا تطرد فى كل كتبه — عليه السلام — فمنها ما لم يذكر فيها (أما بعد) ككتابه للحارث بن ابى شمر وكتابه الى هوذة بن على .

وعبارة **أما بعد** كانت ترد كذلك فى كتب الجاهلية ، فهى ليست سمة اختصت بها كتب الرسول — عليه السلام — أو كتب أصحابه .

والمطرد فى كل الكتب من جاهلية واسلامية سواء أكانت صادرة من النبى — عليه السلام — أو الآخرين أن موضوع الرسالة يرد بعدها مباشرة . وهذا ما نجده فى رسائل النبى — عليه السلام — دون استثناء .

٥ — ختام الرسالة :

اذا ما تركنا صدور الرسائل ونظرنا الى أعجازها وجدناها أكثر اختلافا . اذ ينتهى كل منها بحسب موضوعه ، ولكن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان يعتمد بعض الخواتم أحيانا كالسلام مثلا ، وله عدة صور : السلام العادى اذا كان المكتوب له مسلما ، أو غير مسلم أحيانا ، وربما دعا له بعد السلام ، فيقول « والسلام ورحمة الله ، يغفر

---

(٣٦) انظر : الكتانى : التراتيب الادارية ١/١٤١ .

الله لك » . فــاذا كان غير مسلم قال فى السلام : « والسلام على من اتبــع الهــدى » أو « والسلام عليكم ان أطعتم » . وكان الكاتب فى بعض الأحايين يدون اســـمه فى خاتمة الرسالة ، فيقول : « وكتب فــلان »[27] .

* * *

هــذا هو منهج « الرســالة » النبوية أو تخطيطها من ناحية الشكل بصفة عامة ونستطيع أن نوجــزه ــ اعتمادا على ما غلب عليهــا ــ فى الخطوط الآتية :

١ ــ البــدء بالبسملة أو البسملة والحمد .

٢ ــ ذكر أطراف أو طرفى الرسالة بدءا بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم موصوفا بالرسالة أو النبوة أو هما معا .

٣ ــ عبــارة أما بعــد .

٤ ــ صلب الرسالة أو الموضــوع الأساسى الذى كتبت من اجــله الرســالة .

٥ ــ الختام بالسلام ، أو ما دار فى فلكه .

---

(٢٧) حسين نصار : نشــأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى ٣٩ .

وعلينا أن نلاحــظ أن التقليد الذى سار عليــه النبى - صلى الله عليه وسلم - وخلفاؤه الراشــدون فى كل المهــادنات وعقــود الصــلح أنهــا كانت تشتمل فى نهايتها على أسماء الرجال الذين شهدوها وشهدوا عليهــا ، وهو ما فعــله النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مهادناته مع المشركين من قريش واليهــود والنصارى من أهل نجران وغيرهم [اقــرأ فى ذلك كتاب « المعاهــدات والمهادنات فى تاريخ العــرب لمحمــد عبد الغنى حسن ، وخصوصا الصــفحات من ٦٧ - ٧٣ »] .

المضمون بين الرسالة والخطبة

أشرنا من قبل الى أن الرسالة تختلف عن الخطبة من نواح ثلاث :

الأولى : أن الخطبة — فى ذلك العصر والعصر الجاهلى بصفة خاصة — هى بنت البديهة والارتجال ، وهى بنت ساعتها أو لحظتها بلا اعداد أو تهيؤ . أما الرسالة فيسبقها التأنى ، وتتطلب أعمال العقل ، وقد تقتضى المراجعة والمعاودة[٢٨] .

والثانية وهى نتيجة للسمة الأولى : أن عنصر الفكر فى الرسالة أغلب منه فى الخطبة[٢٩] .

أما الثالثة : فهى أن الرسائل والعهود المكتوبة ادل واصدق فى التقييم الفكرى والفنى من الخطب[٣٠] ، لأن الخطب نقلت مشافهة ، وتناقلتها الأفواه الى أن سجلت بعد عشرات من السنين ، أما الرسائل والعهود فهى أبقى وأثبت على الزمان لأنها وثائق مسجلة مكتوبة[٣١] .

واذا ما نظرنا الى خطب النبى — صلى الله عليه وسلم — ورسائله فى ضوء عناصر الحكم السابق استطعنا أن نقرر — بصفة عامة — أن خطب الرسول — عليه السلام — أعمر بالعناصر التصويرية والفنية من رسائله ويرجع ذلك الى الأسباب الآتية :

---

(٢٨) وهذا لا ينفى أن هناك من الخطب ما يعد قبل القائه ، ومن الرسائل ما فيه طابع العجلة .

(٢٩) الحكم قائم على الغالب الأعم ، فمن الخطب ما هو اعمر بالفكر من كثير من الرسائل مثل الخطب « التشريعية » كخطبة النبى فى حجة الوداع .

(٣٠) لأن نحل الخطب أسهل من نحل الرسائل فى الأغلب الأعم ، ومن ثم تحمل الخطبة ملامح لا تمثل فن من نسبت اليه .

(٣١) انظر جابر قميحة « أدب الخلفاء الراشدين » ٤٥١ — ٤٥٢ .

١ — أن الخطيب يتحدث الى « الجماهير » ويحرص على التأثير فيهم ، وحرصه على جذب عواطفهم مستميلا أقوى من حرصـــه على كسب عقولهم مقنعـــا ،وأن كانت خطب النبى عليه الســـلام قد جمعت بين « الاستمالة والاقناع » ، والتصوير والتمثيل من أهم عناصر الاستمالة ، كما انه عنصر مهم كذلك فى الاقناع . وله فى خطبه وأحاديثه الآيات البارعات فى التشبيه والتمثيل مثل قوله فى خطبة القاها بعد صلاة العصر :« **الا ان الدنيا خضرة حلوة ، ألا وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء...**» ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس الا حمرة على أطراف السعف فقال : **أنه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى** »(٣٢) .

أما الرسالة فهى موجهة الى فرد فى الغالب ، وأحيانا الى جماعة فى شأن محدد معين لا يتسع مجاله — فى ذلك الوقت على الأقل — الى ما يتسع له مجـــال الخطبة للاعتبار السابق الذى ذكرناه .

٢ — من ألوان الكتب كالمعاهدات وكتب الغنائم ما يستلزم استعمال الأسلوب التقريرى المباشر والكلمات ذات الدلالة الواحـــدة المحددة بعيدا عن التزيين البلاغى والتزويق الفنى حتى لا يذهب العقل فى تفسير هذه الكتب أو بعض نصوصها مذاهب ، ويفتح ذلك الباب على مصراعيه للخـــلافات والصراعات والتقاتل وشـــحن النفوس بالعداوة والبغضاء .

ففى مثل هذه الكتب بصفة خاصة لا يعمد الى تزويق ، انما يعمد الى فكرته ، وتبليغ دعـــوة الاسلام ورسالته فى غير اسهاب وفى غير صنعة أو تكلف(٣٣) .

(٣٢) جمهـرة خطب العرب ١٥١/١ ، وهـذه الرواية تدل على أن الخطبة استغرقت ساعات ، ولكن ما بين أيدينـا سـطور منها تعـد على أصـابع اليـد الواحـدة • وهـذا دليـل ايضـا على أن ما لم يصل الينا من خطب الرسـول – عليه السلام – اضعاف ما بين أيدينا •

(٣٣) د• شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العـربى ٩٨ •

وتثور فى المباحث البلاغية عنــد تقييم الأساليب مســألة التفضيل بين الايجاز والاطناب ، فهناك من يرى أن البلاغة ايجــاز ، وأن خير الكلام ما قل ودل ، وأن الزيادة فى الحــد نقصان[٣٤] .

وهناك من يفضل الاطناب على الايجاز بدعوى أن المنطق « انما هو بيان ، والبيان لا يكون الا بالاشباع ، والشفاء لا يكون الا بالاقناع ، وأفضل الكلام ابينه ، وأبينه أشــد احاطة بالمعــانى ، ولا يحاط احاطة تامة الا بالاســتقصاء[٣٥] .

والواقع أن المفاضلة بين الايجاز والاطناب بهذا الاطلاق فى غير محلها ، لأنها تلغى فى الموازنة عنصرا مهما جــدا هــو عنصر « **المقــام أو المجال أو المناسبة** » ونحن نرى فى هــذه المسألة ما يراه ابو هــلال العسكرى من أن الايجــاز والاطناب يحتاج اليهما فى جميع الكلام .. ولكل واحد منهما موضع ، فالحاجة الى الايجــاز فى موضعه كالحاجة الى الاطناب فى مكانه فمن أزال التدبير فى ذلك عن جهته ، واستعمل الاطناب فى موضع الايجاز ، واستعمل الايجاز فى موضع الاطناب أخــطأ[٣٦] .

ورسائل النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يغلب عليها الايجاز بصفة عامة اذا قيست بخــطبه ، أو بتعبير أدق بما يروى من أوصــاف خطبه فمنها الحديث القصير ، ومنها الخطبة التى تستغرق ساعات طوالا ، وقــد نقلنا من قبل ما بقى من خطبة بدأ بها النبى ـــ عليه السلام ـــ بعد العصر واستمرت الى الاصيل أى الى ما قبيل المغرب .

---

(٣٤) انظر « كتاب الصناعتين » لأبى هــلال العسكرى ١٧٣ .
(٣٥) الســابق ١٩٠ .
(٣٦) الســابق نفس الصفحة .

فالطابع الغالب على الكتب والرسائل هو الايجـــاز ، وتعليل ذلك واضح ، وهو يتلخص فيما يأتى :

١ ـــ موضوع الرسالة موضوع محدد يضعه صاحب الرسالة نصب عينيه قبل أن يخط أول حرف فيهـــا ، ولم يعـــرف عهـــد النبوة ما يمكـــن أن نسميه بالرسالة المفتوحة التى ينطلق فيهـــا فكـــر صاحبها بما يشاء ، فمحدودية الغرض الذى من أجـــله انشئت الرسالة لم يترك مجالا للاطناب والاســــهاب .

٢ ـــ طبيعة عهـــد النبوة فى ملامحه الدينية والسياسية والاجتماعية والحـــربية ... كان كل شىء يعتمـــد على البساطة ... على خطـــوطه الأساسية ... بلا تفريعات ولا تعريجات ، ولم يكن هناك مجتمعـــات يحكمها الاسلام خارج الجزيرة العربية مما يقتضى كتابة العهود والكتب الطوال للقـــادة والولاة[٣٧] .

٣ ـــ امكانات الكتابة المحدودة فى عهـــد النبوة من قلة عدد الكتاب ـــ بالقياس الى عهـــد الخلفاء الراشدين ـــ وبدائية الأدوات وصعوبة الكتابة على الأدم (الجلد) والرق ، وهو ما يرقق من الجلد ليكتب فيه[٣٨] . ومن ثم كان الايجاز يوفر الوقت والجهد ، أو بتعبير آخر كان اعترافا ضمنيا بامكانات العصر .

هذا هو الطابع العام لكتب النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ الجنوح الى الايجاز الدال على الغرض ، المعبر عن المطلوب دون اخلال أو اساءة الى المعنى ، وهو يتمثل ـــ كما يقول العقاد ـــ فى اجتماع المعانى الكبار فى الكلمات القصار ، بل اجتماع العلوم الوافية فى بضع كلمات[٣٩] .

---

(٣٧) ومن أشهرها عهـد على بن أبى طالب للاشتر النخعى حين ولاه على مصر ، والعهد يستغرق صفحات كثيرة ، وربما كان أطول العهود فى العصر كله ، وسنعرض لذلك فى الجـزء الثانى من هذا الكتاب ان شـاء الله .

(٣٨) انظـر الكتانى : الترتيبات الادارية ١٢٢/١ .

(٣٩) عبقرية محمد ٧٧ .

ولكن هـــذا الطابع الغالب محكوم بسمة أخرى وهى مراعاته — صلى الله عليه وسلم — لطبيعة الغرض الذى ينشأ من أجله الاكتتاب ، وهو ما عبر عنه الجاحظ بقوله أنه **استعمل البسوط فى موضع البسط ، والقصور فى موضع القصر**(٤٠) .

ومن مراعاته طبيعة الغرض استعماله الاطناب فى كتاب « الموادعة » الذى كتبه بعد هجرته الى المدينة من مكة . كان لابد من تحديد العلاقات بين فئات المجتمع الجـــديد ، أو بتعبير آخر كان لابـــد من وضع « **دستور عمل ومعايشة** » يحدد الحقوق والواجبات ، ويكون مرجعا للتمييز بين الصـــواب والخطأ ، والقرآن لم يكن قد نزل من آياته التشريعية شىء ، أو على الأقل كان فى أولى الخطوات التشريعية ، ومثل هـــذا « **الدستور** » لا يغنى فيـــه الايجـــاز فلابد من الاسهاب والتفصيل والتحـــديد والتقسيم ، وجاء أطـــول عهد كتبه الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى حياته .

وهناك عهد آخر لم ينل حظا من الاسهاب أو الاطناب وهـــو « صـــلح الحـــديبية » أنه من سطور تعـــد على أصابع اليد الواحـــدة بعـــدد الشروط المحـــددة التى تضمنها . . . فالمسألة هنا غير المسألة هناك : الأول دستور دائم ، والثانى عهد يرتبط بظرف طارىء كاد يؤدى الى حرب طاحنة تفاداها النبى — صلى الله عليه وسلم — بلباقة وبعـــد نظر .

واستطاع أن يحقق بهـــذا الصلح — على المدى القصير القريب ، وعلى المدى الطويل البعيد كسوبا للعقيدة والمسلمين ما كان ليحققها الا من كان كمحمد نفاذ بصيره وبعد نظر .

ذاك نظام دستورى لا يغنى فيه الايجاز ، وهذا صـــلح يكون الاطناب فيه تزيدا وحشوا غير مطلوب . وشبيه بكتاب الموادعة بين المسلمين واليهود

(٤٠) البيـــان والتبيين ٢/٨ .

ما كان كتبا تشريعية ومن اشهرها وأطولها كتابه — صلى الله عليه وسلم — فى الصدقات وهو الذى احتفظ به ابو بكر ، وبعث به لأنس بن مالك حين بعثه الى البحرين عاملا عليها .

ونلاحظ أن من وسائل الرسول — صلى الله عليه وسلم — الى التفصيل والاطناب التكرار اللفظى ، وهو كثير جدا فى كتاب الموادعة مع اليهود ، والتكرار هنا ليس فضلة وحشوا ، ولكنه تحديد دقيق جدا « للمراكز القانونية » للفئات المختلفة وتحديد للعلاقات والحقوق والواجبات وهو تحديد لا يقبل التأويل الغالط والتخريج البعيد ، لأن النبى — صلى الله عليه وسلم — ما كان لتخفى عليه ألاعيب اليهود وغشهم وخداعهم .

ويستخدم الرسول — صلى الله عليه وسلم — لونا آخر من التكرار هو التكرار المعنوى ، وهو يعنى الالحاح على الفكرة الواحدة بأسلوب آخر أو أكثر ، وخاصة اذا ما تعلق ذلك بقيمة دينية أو خلقية كقوله فى كتابه الى اهل هجر : **اما بعد فانى أوصيكم بالله وبانفسكم ألا تضلوا بعد اذ هديتم ، ولا تغووا بعد اذ رشدتم ... »**[41] .

وكما يأتى اطنابه فى موضعه المناسب يأتى كذلك ايجازه وهو القصد فى الأسلوب والتعبير عن المعنى بأقل عدد من الألفاظ خلوصا الى ما يرمى اليه من حقائق ، وما ينشده من غايات ، وقد يكون من أهداف ايجازه تنزيه النفس عن اللجج الفارغ ، والهراء الذى لا يليق بالفصحاء ، بله الأنبياء .

---

(٤١) فتوح البلدان ٩٠ .

هذا وقد ذكرنا من قبل انه صلى الله عليه وسلم كان من دأبه أن يذكر فى ردوده خلاصة للكتب التى يرد عليها ، وهذا يعتبر أيضا لونا من ألوان التكرار المعنوى فى صورة موجزة . وقد ذكرنا من قبل تعليل هذه الظاهرة .

يبعث اليه مسليمة بن حبيب بكتابه الذى يدعى فيه أنه يشركه فى الرسالة ، ويشركه فى الأرض « ولكن قريشا قوم لا يعدلون » ، فيأتيه جواب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى سطر أول سطرين « **اما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** » .

وحقق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بهـذا الايجاز غرضين : أولهما الترفع عن الخوض فى جـدل عقيم مع رجل دعى لا هم له الا الجاه والسلطان وأبهة الدنيا . وثانيهما تقـرير الرد فى صورة حقيقة عامة تعتبر جوهرا من جواهر العقيـدة الاسلامية ، وهى أن « الأرض لله يورثها من يشـاء » .

ومن مراعاته — صلى الله عليه وسلم — لطبيعة الأحوال والمقتضيات وموقف الشخص الذى يراسله . أن بعض كتبه يكون مكثفا فى كلمـات قلائل جدا ، وهى فى ذلك تشبه الى حـد بعيد « البرقيات » فى مجتمعاتنا الحاضرة . فقـد عرفنا أن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه بقى بمكة يكتب لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أخبار المشركين ، ولكنه اشتاق أن يقـدم على رسول الله ويترك مكة فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « **ان مقامك بمكة خـير** »([٤٢]) . وهـذه الرسالة — كما هو ظاهر لم تنهج النهج المتبع فى الرسائل النبوية ، من بدء بالبسملة والحمدلة وذكر المرسل ومن أرسلت اليه الرسالة .. وما أرى ذلك الا للايحـاء بضرورة سرعة التنفيذ من ناحية ، وحرصا على سلامة حامل الرسالة وسلامة العباس اذا ما وقعت هذه الرسالة فى يد قريش ، وفوق كل ذلك حرصا على بقـاء السر سرا واستمرار انتفـاع الدولة بجهود العباس — رضى الله عنه — فى كشف ما تدبره قريش وما تعـد له لضرب المسلمين .

---

(٤٢) حميـد الله : مجموعة الوثائق ٥٢ .

ويرد فى كتبه — صلى الله عليه وسلم — ما يسمى عند البلاغيين بايجاز الحذف ، وهذا النوع من الايجاز يحتاج الى الحس البلاغى المرهف من المنشىء والمتلقى ، ومن نماذجه ما جـــاء فى نهاية رسالته لمعـــاذ بن جبل يعزيه فى ابنه « ... **فأحسن الجزاء ، وتنجز الموعود ، وليذهب أسفك ما هو نازل بك ، فكأن قـــد** »[43] .

التقـــابل والتضـــاد

ويرد فى تضاعيف رسائله — عليه السلام — مقابلات أسلوبية ... ترد بصورة طبيعية دون تكلف أو تصيد ، والهدف من ذلك هو بيان الفرق الشاسع بين الطرفين ، حتى يزدادا وضوحا وبيانا . ويكثر ذلك فى كتب الدعـــوة بصفة خاصة ، وفى مجـــالات الترغيب والترهيب بصفة أخص . وترتبط المقابلات فى هذه الكتب بالطلب وجوابه أو الطلب وبيان نتيجته ، وفى ذلك استمالة شعورية ، كما انه محـــاولة لاقنـــاع المرسل اليه بقبول الدعوة . يقول عليه السلام فى كتابه لهرقل « ... **أسلم ، تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك اثم الأريسيين** .. » .

وفى رواية أخرى لكتاب المقوقس « **وقد دعوتك الى الاقرار بوحدانيته ، فان فعلت سعدت ، وان أبيت شقيت** »[44] .

هـــذا وقد ترد فى أسلوبه — عليه السلام — ألوان اخـــرى من البديع كالجنـــاس والازدواج ، ولكنها كمـــا قلت تأتى عفـــو الخاطر بعيـــدة عن التكلف والتصيد .

---

(٤٣) أى فكان قد نزل بك الموت لأنه مدركك لا محـــالة .

(٤٤) صبح الأعشى ٣٧٨/٦ .

السهولة والوضوح

يقول الامام عبد القاهر الجرجانى : والمعقـد من الشعر والكلام لم يذم لأنه مما تقـع حاجة فيه الى الفكر على الجملة ، بل لأن صاحبه يعثر فكرك فى متصرفه[٤٥] ، ويشيك طريقك الى المعنى[٤٦] ، ويوعر مذهبك نحوه ، بل ربمـا قسم فكـرك ، وشعب ظنك ، حتى لا تدرى من أين تتوصـل ، وكيف تطلب[٤٧] .

فالتعقيد له سوأتان ظاهرتان : الأولى وضع العقبات والعراقيل امام القارىء أو السامع تحول بينه وبين الوصول الى المعنى وادراك المضمون . والثانية تشعيب الفكـر وتشتيته واهـدار طاقته فى التخمينات والظنون والتقـديرات .

لذلك تجنب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الغريب الحوشى من الكلام . والكلمـات الحوشية أو المماتة هى الركيزة الأولى من ركائز التعقيد ، وهى بذلك تغلق المعنى على منشئه فكأنه قد كتب أو قال لنفسه لا لكى يقـراه أو يسمعه الآخرون . وسمة السهولة والوضـوح ان احتاجها الأديب او الشاعر فالرسول اليها أحوج ، حتى يستطيع أن يلج نفوس الآخرين ويصل الى قلوبهم فيؤمنوا به .

وكان العقاد على حق حين وصف أسلوب النبى — صلى الله عليه وسلم — بأنه أسلوب عصرى يصلح أن يقتدى به المعاصرون فى زماننا هذا وفى كل زمان ، لأن الأسلوب الذى يخرج من الفطرة المستقيمة هو اسـلوب عصرى فى جميع العصور[٤٨] .

(٤٥) عثره واعثره جعله يعثر .
(٤٦) يشيك طريقك : يجعله مليئا بالشوك .
(٤٧) عبد القاهر الجرجانى أسرار البلاغة ١٢٥ .
(٤٨) عبقرية محمد ٧٦ .

ولكن قد يقال فما بال ما نجده من غريب حوشي في بعض كتبه ، ككتابه الى أهل حضرموت[49] وفيه يقول :

« **الى الأقيال العباهلة[50] ، والأرواع المشابيب[51] ، في التيعة[52] شاة ، لا مقورة الألياط[53] ولا ضناك[54] ، وانطوا الثبجة[55] ، وفي السيوب[56] الخمس ، ومن زنى مم بكر[57] فاصقعوه[58] مائة واستوفضوه[59] عاما ، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم[60] ، ولا توصيم[61] في الدين ، ولا غمة في فرائض الله تعالى[62] ، وكل مسكر حرام . ووائل ابن حجر يترفل[63] على الأقيال** » .

ولكن مثل هذا الأسلوب لا يمثل أسلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم — أي أسلوبه العام الذي يتحدث به في خطبه ويسجله في كتبه ، ومن ثم لا يجوز لنا أن نعمم الحكم فنجعل مثل ذلك سمة من سماته المطردة ، ولكن الأمر أنه — عليه الصلاة والسلام « علم ألسنة العرب ،

---

(49) الشفا ١/٥٩ .

(50) الأقيال : جمع قيل وهو الملك أو الوزير الحميرى . العباهلة : الثابتون . جمع عبهل .

(51) الأرواع : جمع أروع وهو الرائع الذى يعجب الآخرين .
والمشابيب : السادة : جمع مشبوب .

(52) التيعة : أدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان كالأربعين من الغنم .

(53) مقورة الألياط : مرخية الجلد أى مزيلة .

(54) ضناك : ضخمة سمينة .

(55) اعطوا الوسط من المال دون افراط أو تفريط .

(56) السيوف : جمع سيب : وهو الركاز .

(57) من الأبكار

(58) اضربوه .

(59) انفوه وغربوه .

(60) الأضاميم : الحجارة أى ارجموه بالحجارة واسيلوا دمه .

(61) فتور وتقصير .

(62) الغمة : الستر . أى اجهروا بأوامر الله وفرائضه .

(63) يرأس ويتأمر .

يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها فى منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسئلونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله من تأمل حـــديثه وسيره علم ذلك وتحققه . وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجـــد ككلامه مع ذى المشعار الهمدانى وطهفـــة النهـــدى وقطن بن حارثة العليمى والأشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندى وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن(٦٤) .

فنحن ولا شك أمام غريب حوشى لا يفهم أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — منه الا أقـــل القليل ، ولكنه ليس سمة أسلوبية مطردة ، انما هـــو سمة « أسلوب خاص » لقوم لا يفهمون غيره ، وذلك ملمح من ملامح البلاغة التى حـــدها هـــو « **مراعاة مقتضى الحال** » ، ولو خاطبهم النبى بغير لسانهم لكان فى ذلك مجافاة للبلاغة لأن الحصيلة التى يخرجـــون بهـــا ستكون ضئيلة ، بل قـــد تكون معـــدومة . وذلك يناقض « السمه الغالبة على أسلوب النبى . . . وهى سمة **الابلاغ** »(٦٥) أو « **البلاغ المبين** » وأصدق ما يقال فى تعريفها ما قيل فى تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة : أقرب موصل بين نقطتين . فليس أقرب من أسلوب النبى عليه السلام — فى ابلاغ الغرض منه .

لا كلفة اذن — ولا غموض ولا اغراب ، وقلة الغريب — بل ندرته — فى كلام النبى — صلى الله عليه وسلم — أجـــدر الأمور بالملاحظة فى اقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية . .

فمحمد العربى القرشى الناشىء فى بنى سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تفـــوته لهجة قبيلة نائية فى أطراف الجزيرة ، لم يكن فى كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه الى مراجعة . . . وسر ذلك أنه يريد

---

(٦٤) الشـــفا ٥٨/١ .
(٦٥) عبقرية محمد ٦٩ .

أن يبلغ أو يريد أن يصل الى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب ، ومن ذلك ما روى عنه عليه السلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه ، وانه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال : « ان الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها »(٦٦) .

واذا كان — عليه السلام — قد راعى « مقتضى الحال » فى ايثار لهجة القوم على لهجة قريش ، فخاطبهم بلسانهم ، فانه راعى مقتضى الحال فى الأمثلة المضروبة ، ففى كتابه للنجاشى يسوق راى الاسلام فى طبيعة السيد المسيح — عليه السلام — وكيف يبجله المسلمون ويجلونه ، فالرجل نصرانى والذى يشده الى شخصية المرسل ويقربه نفسيا منه ، اشعاره بأنه — ان أسلم — فقد ذهب الى دين ان يكن أوفى واشمل فانه لم يكفر بدينه ورسوله لأن اجلال المسيح والايمان به مبدأ من مبادىء الدين الاسلامى ، وما آمن بمحمد من كفر بالمسيح عليهما السلام . وحينما يكتب الى خيبر — وهم يهود ضالعون فى اليهودية — يكون الحديث عن موسى والايمان به هو المثل الفرد الصالح لهذا المقام . وتلك هى البلاغة الحقيقية التى سارت مثلا يحتذى ، وقدوة لمن يطلبون النماذج العليا فى الأساليب العربية .

التدفق والترسل

ويقصد بهذه السمة أن يجرى الكلام فى يسر ، ويصدر عن طبع لغوى سليم بعيدا عن التكلف والتصيد بحيث يكون تزيين الأسلوب بضروب الصنعة أمرا مقصودا لذاته وخصوصا السجع . وقد أنكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مثل هذا الأسلوب المثقل بالسجع ، فيروى ان رجلا جاءه وقال « يا رسول الله ، أرأيت من لا شرب ولا اكل ، ولا صاح

---

(٦٦) عبقرية محمد ٧٣ .

فاستهل ، أليس مثل ذلك بطل » فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مستنكرا « **أسجع كسجع الجاهلية** » ؟

وأمام هـــذا الحـــديث ذهب النقاد القـــدامى مذاهب شتى : فمنهم من قال « لـــو أن هـــذا المتكلم لم يرد الا الاقامة لهـــذا الوزن لمـــا كان عليه بأس ، ولكنه عسى أن يكون أراد ابطالا لحق فتشادق فى كلامه » وهـــذا التخريج يعنى أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ استنكر « موضوعا » أو مسلكا معينا ارتبط به هـــذا الكلام .

ومن قائل وجـــدنا الشعر من القصيد والرجز قـــد سمعه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واستحسنه وأمر به شعراءه ، وعامة أصـــحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قـــد قالوا شعرا قليلا كان ذلك أم كثيرا ، وسمعوا واستنشدوا ، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز ، فكيف يحل ما هـــو أكثر ويحرم ما هـــو أقل ؟

وكان أحسن ما بدا هـــو قول من ذهب الى أن السجع يكون جيدا مقبولا « اذا لم يطـــل ، ولم تكن قوافيـــه مطلوبة مجتلبـــــة ، أو ملتمسة متكلفـــــة »[٦٧] .

ويقول الجاحظ « وكان الذى كره الأسجاع بعينها ــ وان كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة أن كهان العرب الذين كان اكثر أهـــل الجاهلية يتحاكمون اليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ، وأن مع كل واحـــد منهم رئيا من الجن ، كانوا يتكهنون ، ويحكمون بالأسجاع . . . فوقـــع النهى (عـــــــن السجع) لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم ، فلمـــا زالت العـــلة زال التحريم »[٦٨] .

---

(٦٧) البيان والتبيين ١٥٨/١ .

(٦٨) الســـابق ١٥٩/١ .

ونحن نرى أن استنكار النبى للسجع فى المثال السابق وما شابهه يرجع الى سببين :

الأول : سبب عقدى : وهو ارتباط هذا السجع ذى الجمل القصيرة السريعة الحادة بالكهانة الجاهلية التى ترتكز على عقيدة فاسدة خاسرة .

الثانى : سبب أدبى ذوقى : فقد كان النبى — عليه السلام — نموذجا للفصيح البليغ الذى يتسنم قمة البيان الانسانى . ومثل هذا السجع — على ما فيه من تكلف — يتمتع بتفاهة المضمون ، وغثاثة المعنى .

فالسجع ليس مرفوضا لذاته ، انما هو فى ذلك كالشعر « حسنة حسن ، وقبيحة قبيح » كما يقول حجة الاسلام ابو حامد الغزالى[69] . وقد كان الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة فلم ينهوا منهم أحدا[70] .

* * *

والترسل — كما قلنا من قبل — سمة غالبة على بيان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خطبا وأحاديث وكتبا ، وما افتعل قط ولا تكلف ، ولكن كلامه لم يخل من سجعات قليلة ترد عفو الخاطر ، وتوضع فى سياق كلامه ، فيحس القارىء كأنها لم تخلق الا لهذا السياق ، وأن السياق بغيرها لا يكون بيانا بليغا . ومن نماذجه ما جاء فى كتابه الى المنذر بن ساوى ملك البحرين « **فان من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم** ... » .

---

(٦٩) احياء علوم الدين ٩/١٥٦٩ .

(٧٠) البيان والتبيين ١/١٥٩ .

وفى كتابه الى ابنى الجلندى ملكى عمان[71] يقول « **... وان أبيتما أن تقرا بالاسـلام ، فان ملككما زائل عنكما ، وخيلى تحل بساحتكما ، وتظهر نبـوتى على ملككما** » .

فسجعه العفوى هـذا يأتى فى كلامه حليـة لهـا قيمتها ، « ومذهبه فى هـذه الحلية اللطيفة مذهبه فى كل حلية تليق بالرجل : فحولة فى القول ، وفحولة فى الزينة ، فسجعه عليه السلام كحلية الذهب التى يليق بالرجل أن يتحلى بها ولا مزيد »[72] .

ويقال ان أبا سفيان كتب للنبى عليه السلام كتابا يهـدده والمسلمين فيه .. يقول فى آخره « نريد منك نصف نخل المدينة ، فان أجبتنا الى ذلك ، والا أبشر بخراب الديار ، وقلع الآثار .... » .

فأجابه النبى بكتاب جاء فيه « وصل كتاب أهـل الشرك والنفاق ، والكفر والشقاق ، وفهمت مقالتكم ، فوالله مالكم عندى جواب الا أطراف الرماح ، وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب الحسام ، وبفلق الهام ، وخراب الديار ، وقلع الآثار .. » .

ويعلق العقاد على هـذه الرواية التى أوردها فى كتابه « عبقرية محمد » بقوله « فهـذا السجع فى هـذا المقام أصلح لخطاب الجاهليين ، لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين ، كما يعرفون منه المناجزة والتخويف ومن هنا أقر النبى ــ عليه السلام ــ نص الحلف الذى كان بين جـده وخزاعة على ما كان به من سجع وتفخيم يجعلونهما موثقا تعقد به المواثيق ، وتؤكد به الحرمات ... »[73] .

(71) صبح الأعشى ٦/٣٨٠ .

(72) عبقرية محمد ٧٤ .

(73) عبقرية محمد ٧٥ .

وحكم العقاد هـذا فيه نظر :

١ ـ فما كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليجارى الجاهليين فى أسلوبهم عن قصد ، ولا يمكن أن توحى هـذه المجاراة « بالتوثيق والتمكين والمناجزة والتخويف » بل ربما كانت « المغايرة » الأسلوبية ادل على ذلك .

٢ ـ والكتاب ابعـد ما يكون عن طبيعة كتب النبى ـ عليه السلام ـ أسلوبا ومضمونا ، فالسجع فيه ـ كما هـو ظاهر ـ مقصود لذاته ، وهذا ما ترفع عنه النبى ، وأنكره على رجل نطق بمثل هـذا فى القصة التى رواها الجاحظ . وما كان النبى عليه السلام ليهـدد **بخراب الديار ، وقلع الآثار ،** وهو الذى كان ينصح الصحابة اذا ما توجهوا لحرب الا يمثلوا ، أو يقطعوا نخلا أو يقتلوا طفلا أو امرأة ... الخ لأن الحرب فى الاسلام انما شرعت دفاعا عن النفس والعقيدة .. أى أنها حرب هـدفها التطهير والتعمير ، وليست حربا للتخريب والتدمير .

٣ ـ وقـد أنهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هـذا الكتـاب المنسوب اليه ببيتين من الشعر لا يستقيم وزنهما ، زيادة على ما فيهما من ركه وضعف فى المعنى وهما :

الا بلـغ عنى قريشـا من لسـان كالحسـام

الا هلموا كى تلاقوا ما لاقيتم من الصمصام فى بدن وهام

ولم يعرف عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه تمثل بشعر فى كتبه ، كما أن تشبيهه لسانه « بالحسام » تشبيه غريب لا يليق بمقـام النبوة ، وان ناسب شاعرا فى مقام الهجاء والحماسة .

٤ ـ واقرار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للحلف الذى كان بين جـده وخزاعة ـ على ما به من سجع ـ لا يدل على اقراره لمثل هـذا الأسلوب ، انما كان اقراره لمضمون الحلف ذاته ، وربما كان هـذا الحلف

هـو الدافع الأساسى الذى دفع خزاعة الى الدخول فى حلف النبى — صلى الله عليه وسلم — بعـد عقد صلح الحـديبية بين النبى وقريش .

٥ — والكتب التى بين أيدينا لأبى سفيان — وبعضها موجـه للنبى — صلى الله عليه وسلم — لم تستخدم هـذا الأسلوب المسجوع ، ومنهـا الكتاب الذى يهـدد فيه النبى والمسلمين أيام الخندق « بالاستئصال » . وليس هناك داعية تدعوه الى استخدام هـذا الأسلوب المسجوع فى هـذا الكتاب بصفة خاصة .

٦ — والدكتور حميد الله شكك فى كتاب أبى سفيان ورد النبى عليـه مصدرهما بالتعليق الآتى :

« ... ولم أر أثرا لهـذا المكتوب فى الكتب المتداولة ولا يكاد يصح ، نظرا الى أسلوبه » . وقـد نقله من مخطوطة أيا صوفيا لكتاب السيرة لمحمد ابن جرير الطبرى . وأغلب الظن أن العقاد نقل الكتابين عن حميد الله من كتابه مجموعة الوثائق[٧٤] .

الشواهد القرآنية
والأسلوب النبوى

وكان من الطبعى أن يطعم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كتبه ورسائله بآيات من القرآن الكريم : ولا عجب فى ذلك فقـد تربى على مائدة القرآن ، وكان بيانه الساحر أهم مصادر فصاحته . وكان للنبى — عليـه السلام — منهج دقيق فى سوق الآيات فى كتبه يعتمد على ركيزتين :

الأولى : طبيعة من يبعث اليه الرسالة ومركزه الدينى والاجتماعى .
والثانية : طبيعة السياق والمضمون الذى تعبر عنه الرسالة .

(٧٤) أنظر حميد الله ٥٣ .

فهو فى كتبه الى من كان على دين كتابى يسوق آية تخاطب اهل الكتاب « **يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، الا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شئيا ، ولا يتخــذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فــان تولــوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون** »(٧٥) .

فهو يورد الآية بنصها فى كتابه لقيصر الروم (هرقل) وفى كتابه الى المقــوقس عظيم القبط فى مصر : فالنصرانية دين الرجلين ، ومن ثم كانت فى موضعها الذى لا يغنى فيه غيرها . كما أنها لا يستشهد بها فى كتاب موجــه لمشرك يعبد غير الله .

وفى كتابه الى النجاشى ملك الحبشة وقــد كان نصرانيا ورجل صدق ودين يضمن كتابه ما قاله القرآن فى طبيعة عيسى فهــو « **روح الله وكلمتــه ألقــاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة** » وهــو اقتباس واضح من قــوله تعالى « **اذ قالت المــلائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم** .... »(٧٦) .

ويقول عنه النبى عليه السلام فى رسالته « **فحملت بعيسى ، حملته من روحــه ونفخه** .. » وهــو اشارة الى قوله تعالى « **ومريم ابنة عمران التى احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا** .. »(٧٧) .

ثم يكون الشأو الأعلى فى البلاغة حين يراعى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما فى النصرانية من روح المحبة والتسامح والسلام فيضمن كتــابه من أسماء الله الحسنى ما يتفق مع طبيعة هــذا الدين « **فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، واشهد أن عيسى** .. »

---

(٧٥) آل عمران ٦٤ .
(٧٦) آل عمران ٤٥ .
(٧٧) التحريم ١٢ .

مع ان نص الآية القرآنية « **هو الله الذى لا اله الا هو الملك القــدوس السلام المؤمــن المهيمــن العزيز الجبــار المتكبر . ســبحان الله عمــا يشركون** » ولكنه — عليه السلام — عرض فى كتابه من أسماء الله الحسنى ما يكون النجاشى أكثر اهتزازا لــه وأشد خشوعا أمامه من غيره ، وليبين ما بين الديانتين من تلاق صادق فى العقيدة الألوهية . وجاء الحــديث من قبل عن طبيعة السيد المسيح وأمه مريم . . حــديث تعظيم وتجلة وتوقير ردا على ما زوره بعث قريش لمحاولة الايقاع بين النجاشى وبين مهاجرة المسلمين الى الحبشــة(٧٨) .

أما اذا كان من ترسل اليه الرسالة كافرا بالله مثل كسرى ملك الفرس فأسلوب « **الرسول النذير** » هنا هــو أنسب الأساليب ، فيبين عليه السلام بعــد أن يدعــوه للاسلام أنه بعث للنــاس كافــة لينذر من كان حيــا « **ويحــق القول على الكافرين** »(٧٩) .

* * *

هــذا عن الركيزة الأولى للاستشهاد القرآنى فى كتب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهى مراعاة طبيعة المرسل اليه دينا ومركزا . أما الركيزة الثانية فهى طبيعة السياق والمضمون والتناسب المعنوى بين الآية المسوقة والمعانى التى تحملها الرسالة أو العهد . وكان عهده لعمرو بن حزم الأنصارى حين ولاه اليمن من أعمر كتبه بالآيات القرآنية . وكل آية من هــذه الآيات ترتبط ارتباطا معنويا وثيقا بتوجيه أو مبدأ أو قاعــدة او أمر أو تنظيم مما ساقه الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى كتابه . فهو

---

(٧٨) ويدور هــذا المدار ايضا ما استشهد به النبى — صلى الله عليه وسلم — من قرآن فى كتابه ليهود خيبر وحــديثه عن موسى والأسباط وتبشير كتبهم بظهــوره وظهــور الاسلام ، وقــد اشرنا الى ذلك من قبل [انظر حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية : ٦٨] .

(٧٩) ســورة يس ٧٠ .

يجعل أساس العهد الطويل الوفاء بالعهود والعقود والوعود ، فيصـــدره بقوله تعالى « **يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** .. »[80] .

وفى سياق حـــديثه عما يجب أن يتحلى به الحاكم من صلاح وتقـــوى يستشهد بقوله تعالى « **ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** »[81] .

ويستشهد بقوله تعالى « **ألا لعنة الله على الظالمين** »[82] فى ســـياق حـــديثه عن واجبات الحاكم ، فى ضرب الظـــلم والظالمـــين ، والانتصـــار للمظلومين والمستضعفين .. **وطريقة استشهاد الرسول — صلى الله عليه وسلم — يأتى على ثلاثة وجـــوه :**

١ — فهو قـــد يستشهد بالآية كاملة . أو بجزء من آية دون تغيير كاستشهاده بصـــدر الآية الأولى من سورة المـــائدة .

٢ — وقـــد يضمن كلامه الآية أو جزءا منها مع تغيير طفيف فتنساب الآية فى سياق الكلام كماء الذهب وكأنها بنت لحظتها ، وكأنها لم تنزل الا لهـــذا الكتاب .

٣ — وقـــد يكون الأمر كلمات قرآنية تنتثر هنا وهناك فى تضاعيف كتبه ، وهى أكثر من أن تحصى . مثل : الهدى والحق — تولى — سبيل الله ... الخ .

* * *

وقـــد استخلص الأستاذ انيس المقـــدسى من رسائل النبى — عليـــه السلام — سمة أسلوبية تلفت النظر وهى استخدام ألفاظ وعبارات خاصة قلما نعثر عليها فى سوى هـــذه الكتب كقوله : ما كان أحـــد مكانه — مابل

---

(٨٠) ســـورة المـــائدة ١ .
(٨١) ســـورة النحـــل ١٢٨ .
(٨٢) ســـورة هـــود ١٨ .

بحر صوفه[٨٣] ... لم آثم ما لكم (أى لم أجازكم على ما لكم من أعمال تستوجب الجزاء) ـ لم أضـــع فيكم منذ سالمت (اى لم اقم بأمر فيه نقض لعهد أو اساءة لكم) . ـ ان لهم سعاية (اى صدقة) وليقم فلان (أى ليتول الأمر أو ليقم بالصلاة فى الناس وجمع الصدقات) . لايحاقه فى ذلك أحـــد (أى لا يدعى ان له حقا فيه) ... وان الله ورسوله جار على ذلك (أى حليف أو مناصر)[٨٤] .

بين التقرير والتصوير

أسلوب الرسول صلى الله عليه يرتبط فى طبيعته وسماته بطبيعـــة الموضوع الذى يتناوله الكتاب بحيث يكون هـــو أنسب الأساليب للموضوع الذى يتناوله والأفكار التى يتكون منها هذا الموضوع . ففى الكتب التشريعة والكتب التنظيمية والادارية يقترب أسلوبه من الأسلوب العـــلمى ، بل يكاد يكون علميا بحتا فى كتب « الغنائم والعطـــايا » حتى ليكون الكتـــاب مجرد « قائمة » لا تحوى الا أسماء وأرقاما ككتابه فى مقاسم اموال خيبر الذى جاء فيه : **« هـــذا ما اعطى محمد رسول الله : لأبى بكر بن أبى قحافة مائة وسق ، ولعقيل بن أبى طالب مائة وأربعـــين ، ولبنى جعفر بن أبى طالب خمسين وسقا ، ولربيعة بن الحارث مائة وسق ... »**[٨٥] .

ويمضى الكتاب على هـــذا النهج الى نهايته ، بهـــذا الأسلوب المباشر المحـــدد الذى لا يزيد على ذكر « أسماء » و « استحقاقات » ولم يتبع فيـــه الرسول عليه السلام النهج المطرد فى الكتب والرسائل فى البدء والختـــام

---

(٨٣) هـذه العبارة بالذات (ما بل بحر صوفه) وردت فى أحـــلاف الجاهلية كحلف الفضول وحلف عبد المطلب وآله مع خزاعة والحلفان اقرهما النبى صلى الله عليه وسلم [انظر جمهرة رسائل العرب ١/٢٥] .

(٨٤) أنيس المقـدسى : تطـور الأساليب النثرية فى الأدب العربى ٣٧ .

(٨٥) مجموعة الوثائق ٧٠ .

وغير ذلك لأنه غير مطلوب فى مقام لا يحتاج الا الى التحـــديد الجازم حفظا لمـــا نص عليه من حقوق . فالأسلوب التقريرى المباشر ليس هـــو أفضل الأساليب فى هـــذا المقام فحسب ، بل هـــو الأسلوب الفـــذ المطلوب بحيث لا يغنى عنه غيره من الأساليب .

* * *

هـــذا الأسلوب المباشر كان همـــه الأكبر « العنصر الفـــكرى » أى المضمون المعنوى انطلاقا من « مهمة التبليغ » لذلك قـــل فيه « العنصر التصويرى » وخصوصا كتب الاقطاع والغنائم ، والكتب التنظيمية والادارية .

ولكن هـــذه الكتب لم تخل تماما من لمحات تصويرية عفوية بارعـــة يظهر عليها بصمات البيئة العربية آنذاك . وهى فى مجموعها تتسم بالوضوح والبساطة والبعـــد عن التعقيد وقرب المـــأخذ حتى ليخيل للقارىء أنهـــا أساليب حقيقية لا مجازية . ومن هـــذه الصور :

« **ما بل بحر صوفة** »[٨٦] وهـــو كناية عن الديمومة وعـــدم الانقطاع . ومنها : **واعلم ان دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر** . فالخف مجـــاز مرسل علاقته الجزئية والحافر مجاز مرسل علاقته الجزئية كذلك ويعنى به الخيل . وفى العبارة كناية عن سعة انتشار الدعـــوة .

ومن كتابه لابنى الجلندى « **وخيلى تحل بساحتكما** » وهى كناية عن القـــدرة والنصر والسيطرة . ومن الأساليب الاستعارية الجميلة قـــوله متحـــدثا عن اكيدر دومة فى كتابه اليه « ... **اجاب الى الاســـلام ، وخـــلع الأنداد والأصنام** » فقـــد جعل الأنداد والأصنام قيدا يثقل صاحبه ، وحذف المشبه به ورمز اليه بلازمة من لوازمه وهى الخلع .

---

(٨٦) صوف البحر شىء يشبه صوف الحيوان والمفرد صوفه ولعله زبد البحر . أو هـــو الأســـــفنج .

ومن تشبيهاته في عهد الموادعة بينه وبين اليهود « **وإن الجار كالنفس** » .

ولكن اكثر كتبه توهجا وأعمرها تصويرا كتابه الى معاذ بن جبل في تعزيته في ابنه ، ولا عجب في ذلك فهى رسالة اخوانية خاصة لا تتعلق بأى أمر من أمور الدولة أو سياستها العامة . ومن الصور الجميلة فيها تشبيه الأنفس والأهل والموالى بالعطايا ومن الأساليب الاستعارية « **يحبط جزعك صبرك** »(٨٧) . والسجع في الرسالة جاء بلا تصنع أو تكلف (.. الأجر .. الصبر .. الشكر) وكان الازدواج في العبارات كالسجع لا تكلف فيه ولا تصيد . وفي الرسالات مقابلات رائعة كان لها اثر كبير في ابراز القيم الاسلامية والنفسية التى حرص عليها الرسول — صلى الله عليه وسلم .

* * *

وكانت رسائل الآخرين في هذا العصر يقل كذلك فيها التصوير .. وان وجد فهو قريب المأخذ غير بعيد وغير شارد كما نرى في كتاب « الوليد بن الوليد » — وكان قد أسلم — الى أخيه خالد يدعوه فيه الى الاسلام(٨٨) .

وكما نرى في كتاب خالد بن الوليد للرسول — صلى الله عليه وسلم — ينبئه فيه باسلام بنى الحارث بن كعب . والكتاب يتدفق بأدب الحديث وتوقير مقام النبوة : فهو يذكر اسم النبى قبل اسمه ، وهو يصفه بالنبوة والرسالة في مطلع الرسالة ، ويكرر ذكر النبى — صلى الله عليه وسلم — تلذذا بهذا الذكر ، وهو دائما مقرون بالصلاة والتسليم عليه . وهو يتحدث عنه غالبا بضمير الغائب تهيبا وتوقيرا لمقامه . وفي اعطاف الرسالة

---

(٨٧) أى يأخذك الحزن والفزع ولا تصبر ومن ثم لا تنال ثواب الصابرين .

(٨٨) انظر حميد الله : مجموعة الوثائق ٦٤ .

تسرى عاطفة حب متدفق صادق من سيف الله المسلول للنبى الكريم — عليه السلام — وتكاد الرسالة تخلو من الصور عـدا تشبيه واحـد فى (معالم الاسلام) وهى صورة أقرب ما تكون للأسلوب الحقيقى .

بين الشك واليقين

ومن فحص الرسائل التى تنسب للنبى — صلى الله عليه وسلم — نستطيع بالاحتكام الى طوابعها الفكرية وملامحها الأسلوبية أن نحـكم بصحتها أو وضعها . ولكن قـد يكون هناك من الأدلة المـادية ما يجعلنا نرفض الرسـالة ابتداء دون فحص مضمونها وسماتها ومثال ذلك كتاب ينسب الى النبى — صلى الله عليه وسلم — يسقط الجزية عن أهـل خيبر . وقـد حمل الكتاب فى سنة ٤٤٧ هـ الى رئيس الرؤساء ابى القاسم على بن الحسن وزير القائم فعرضه على الخطيب البغـدادى فقال : مزور ، لان فيه شهادة سعد بن معاذ ، وقـد مات قبل فتح خيبر بسنتين ، وفيه شهادة معاوية وانما أسلم عام فتح مكة اى بعـد خيبر بسنة .

ولكن ابن القيم يتخـذ من مضمون الكتاب سببا لرفض نسبته الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اذ لم تكن الجزية وقت فتح خيبر ، ولم تنزل آية الجزية الا بعـد سنتين من غزوة خيبر ، ولم تكن على اهل خيبر كلف ولا سخرة فى زمن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى توضـع عنهم[٨٩] .

* * *

وقـد عرضنا من قبل للمعيارين الذين وضعهما الدكتور حميد الله للحكم بصحة الرسائل أو وضعها ، وقلنا ان كل رسالة يجب أن ينظر اليها

(٨٩) حميد الله : السابق ٩٥ — ٩٦ .

فى ذاتها نظرة شمولية فاحصة ، ولا يكفى أن نقــول أن الرسالة موضوعة لأنها تضمنت حقوقا دون أن تنص على واجبات تقابلها ، وقلنا ــ بنــاء على هــذا الفحص ــ ان رسالة أبى سفيان التى زعم انه بعث بها الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكذلك رد النبى عليها . . . قلنا أنهما موضوعتان لأسباب أبديناها منها ما يتعــلق بالمضــمون ومنها ما يتعــلق بالأسلوب ، كما وقفنا وقفة متأنية أمام رسلة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى معاذ بن جبل يعزيه فى ابن فقده ، ورددنا على من شك فى نسبة هــذه الرسالة الى النبى ــ عليه السلام ــ[٩٠] .

كما يوجــد بعض الكتب التى لا يوجــد ادنى شبهه فى وضعها ومنها كتابان نقلهما الدكتور حميد الله من مجموعة تآليفات الآباء الشرقيين ، وبصرف النظر عن طولهما وما نصا عليه من حقوق مسرفة لنصارى نجران ، يستطيع القارىء العادى أن يدرك بسهولة أن هــذين « العهدين » وضعا فى العصر الحــديث أو أحــد العصرين التركى والمملوكى ، وأنهما أبعــد ما يكونان عن أسلوب النبى عيله السلام . واعتقد أن واضعه أحــد رجال الدين النصارى . ونكتفى بالنظر الى العهد الأول[٩١] من العهدين فنرى أن القارىء لا يتردد فى الحكم بتزييفه . ومن أدلة ذلك :

١ ــ الطــول المفرط فقــد بلغ ثلاثة اضعاف عهد الموادعة بين النبى والمسلمين واليهــود .

٢ ــ عــدم اتباع نهج الرسول عيه السلام فى عهوده وكتبه فلم يكتب فى ذيل العهد أسماء الكاتب والشهود .

٣ ــ ينص صــدر الكتــاب بأنه أمان من الله ورسوله « **للذين أوتوا الكتاب من النصارى ، من كان منهم على دين نجران ، أو على شىء من نحل النصرانية . .** » .

---

(٩٠) هـو غانم جواد فى كتابه « الرسائل الفنية » ٧٥ ــ ٧٩ .
(٩١) حميد الله : ١٤٦ .

مع أن النبى — عليه السلام — كان يتعامل مع النصارى على أساس انهم أصحاب ملةواحـــدة ، اما مسألة « النحل » والمذاهب هـــذه فكانت فى عصـــور متأخرة .

٤ — يصور العهد النصارى بصورة « حماة الاسلام » فيأتى فى العهد — على لسان النبى — **وأراد النصارى من تقـــوية أمرى . ونصبوا لمـــن كرهـــه ، وأراد تكذيبه وتنفيره ... »** .

بل يجعل منهم حماة الحدود الاسلامية ضـــد المغيرين وذلك بدفاعهم « **وذبهم عن غزاة الثغور فى نواحيهم .. »** .

٥ — وكثير جـــدا من العبارات والكلمات لا يمكن بأية حال ان يتفق مع أسلوب عصره كقـــوله « **.. فاحضرت رؤســـاء المسلمين ، وافاضـــل أصحابى ، وأكدت على نفسى الذى ارادوا ، وكتبت لهم كتابا ، يحفظ عنـــد أعقـــاب المسلمين ، من كان منهم سلطانا او غير سلطان ، فان على السلطان انقاذ ما أمرت به ...** » فاستعمال «**الرؤساء**» و « **السلطان** » يؤكدان ان العهـــد ان لم يكتب فى العصر الحـــديث ففى أحـــد العصرين : التركى والمملوكى .

ومثل هـــذا قوله « **وعلى الســـوقة ان لا يؤذوهم ، وأن يكملـــوا لهم العهد ..** » . فالنبى — عليه السلام — لم يقسم المسلمين الى « علية » و « سوقة » ، وكيف يفعل وهـــو القائل « **المسلمون تتكافا دماؤهم ، يسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم** » .

وعبارة العهد السابقة تعكس ما كان يتعرض له النصارى فى العصور المتأخرة على أيدى السوقة والحكام الظالمين ممن فقـــدوا روح الاسلام فى التسامح وانصاف أهـــل الذمة ممـــا أشار الجبرتى الى كثير منه فى تاريخه .

* * *

ويشكك الأستاذ أنيس المقـدسى فى كتب النبى الى الملوك سنة ٦ هـ بمقـولة أن النبى — عليه السلام — « لم يكن قـد بلغ فى تلك السنة من القـوة الحربية ما يرغم قبائل العرب القريبة على الخضوع التـام ، فكيف يعقل أن يهتم باخضاع كبار الملوك يومئذ وهـو لا حول حربى له ولا طول . ففى مثل هـذه الكتب الملوكية متسع للشك لمن أراده . والذى يراجع القصة التى حيكت حول كتاب الرسول الى ملك الروم يرجح انها من قبيل الأخبـار القصصية لا الحقائق التاريخية[٩٢] .

وهـو شك فى غير موضعه ، وليس له ما يبرره :

١ — فالهـدف من هـذه الكتب لم يكن « اخضاع كبار الملوك » كما ذهب الأستاذ المقـدسى ، بل كان دعوة هؤلاء الى هـدى الاسلام ، وليس فى هـذه الكتب ما يوحى بطلب النبى خضوعا واستسلاما وتبعية .

٢ — والقول بأن النبى — عليه السلام — لم يكن له فى تلك السنة حول وطول قول غير صحيح ، ففى هـذا العام هابته قريش ، والا لقاتلتـه فى الحـديبية . بل انه والمسلمين — مع أنهم لم يكن معهم من السـلاح الا السيوف فى القرب — تأهبوا لقتال قريش اعتقادا من المسلمين أن قريشا قتلت عثمان بن عفان — رضى الله عنه — رسول رسول الله الى قريش .

٣ — والمسلمون خـلال عامين فقط : الخامس والسادس الهجريين استطاعوا أن يقوموا بعشرين غزوة وسرية .

٤ — على أن النبى — صلى الله عليه وسلم — والمسلمين معـه كانوا يعوضون بقـوة الايمان ، وشجاعة القلب ، والتسليم بقاعـدة « لن يصيبنا الا ما كتب الله لنـا ما يعوضهم عن قـوة السلاح .

---

(٩٢) تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى ٣٤ .

٥ ــ وهــذه الكتب بعث بها النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعــد أن « عزل » جبهة قريش ، وجنى بهــذا العهد كسوبا سياسية كبرى .

٦ ــ واخيرا : من يقرأ هــذه الكتب يرى أنها ذات سمات وملامح لا تختلف عن صفات الأسلوب النبوى فى كتبه الأخرى .

* * *

والخلاصة أن اغلب الكتب التى نقلت الينا عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ صحيحة ، وقليل منها يسهل اكتشاف التزوير فيه وقــــد قــدمنا نماذج لمثل هــذه الكتب .

هــذا وآمل أن يتسع الوقت والعمر لتقــديم الجزء الثانى من الكتاب الذى سيكون فى أدب الرسائل فى عهد الخلافة الراشدة . كما أعلنت فى مقدمة الكتــاب .

والحمد لله رب العالمين . .

مختارات من الكتب والرسائل

(١)

كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
بين المهاجرين والأنصار واليهود بالمدينة[١]

« بسم الله الرحمن الرحيم : هـذا كتـاب من محمـد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهـد معهم ، أنهم أمة واحـدة من دون الناس ، والمهاجرون من قريش على رباعتهم[٢] يتعـاقلون[٣] بينهم ، وهم يفـدون عانيهم[٤] بالمعروف والقسط[٥] بين المؤمنين • وبنو عـوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفـدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنو ساعدة على رباعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنـو الحارث على رباعتهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٨٨ .
وهو أول كتاب كتبه النبى — صلى الله عليه وسلم — بالمدينة بعـد نزوله بها ، وهـو كما قلنا يمثل « دستور الحياة » فى المجتمع أول الدولة الجـديدة .

(٢) الربعة والرباعة (بفتح الراء) الشأن والحال . يريد أنهم على أمرهم الذين كانوا عليه من قبل : من أداء العقول والديات وغيرها . والربعة أيضا قسمة البلد فتشتمل على منازلهم ومساكنهم .

(٣) المعاقل : الديات . والتعاقل هـو اعطاء المعاقل أى الديات . ويقصـد يكونون على ما كانوا عليه من أخـذ الديات واعطائها .

(٤) العانى : الأسير . وفى الحـديث الشريف : « أطعموا الجائع وفوا العانى » وهـو مأخوذ من العنو أى الخضوع . والفعل : عنا يعنو .

(٥) القسط : (بالكسر) : العـدل . واقسط : عـدل . ومنه قوله تعالى « ان الله يحب المقسطين » .

يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفــدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنو جشم على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفــدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنو النجار على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفــدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنو عمرو بن عــوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفــدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنو النبيت على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفــدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنو الأوس على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفــة منهم تفــدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين •

وأن المؤمنين لا يتركون ُمفرحاً(٦) بينهم أن يعطــوه بالمعــروف فى فــداء ٍ أو عقل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقــين على من بغى منهم ، أو ابتغى دســيعة ظلم(٧) ، أو اثم ، أو عــدوان ، أو فســاد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعــا ، ولو كان ولــدَ أحــدهم ، ولا يقتــل ُ مؤمن مؤمنــا فى كافر ، ولا ُينصر ُ كافر" على مؤمن ، وأن ذمة الله واحــدة • يجــير ُ عليهم أدناهم(٨) ، وأن المؤمنين بعضهم موالى(٩) بعض دون الناس •

---

(٦) أفرحه الدين : اثقله . والمفرح (بفتح الراء) هــو الذى أثقله الدين ولا يستطيع قضاءه .

(٧) الدسعة : الدفعة والعطية ، وكذلك الدسيعة . وابتغى دسيعة ظلم : اى أراد عطاء أو رشوة مقابل أن يظلم الآخرين .

(٨) أدناهم : أقلهم شأنا . ومعنى « يجير عليهم ادناهم » أى اذا اجار واحــد من المسلمين — ولو كان قليل الشأن — وأحــدا من الأعــداء فعلى بقية المسلمين أن يحترموا اجارته . وفى الحــديث الشريف « المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

(٩) الموالى : جمع مولى وهــو المؤيد والمناصر . وتأتى بمعنى السيد والعبــــد .

وأنه من تبعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة[10] غير مظلومين ، ولا متناصر عليهم ، وأن سلم المؤمنين واحدة[11] ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا[12] ، وأن المؤمنين يبيء[13] بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ، ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط[14] مؤمنا قتلا عن بينة[15] فانه قود[16] به الا أن يرضى ولى المقتول[17] ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الا قيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا[18] ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء ، فان مرده[19] الى الله عز وجل ، والى محمد .

وأن اليهود ينفقون ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، الا

---

(١٠) الأسوة هنا بمعنى المواساة والمعالجة . وواساه : عالجه .

(١١) السلم (بفتح السين وكسرها) الصلح . والكلمة تستعمل مؤنثا ومذكرا أى أن الصلح الذى يوقعه المسلمون يصدق عليهم جميعا ، ولا يجوز لمسلم أن ينفرد بذلك واحد دونهم .

(١٢) أى يجب ألا يكون عبء القتال على بعض المسلمين دون بعضهم بل يكون مناوبة بينهم بحيث يسهم فيه الجميع .

(١٣) يبيء : يساوى . وأباء القاتل بالقتيل اذا قتله به .

(١٤) اعتبطه أى قتله دون ذنب جناه .

(١٦) القود : القصاص . أى يقتل به .

(١٧) أى يرضى بالدية أو بالعفو .

(١٨) المحدث : الجانى .

(١٩) مرده : مرجعه .

من ظلم وأثم ، فانه لا يوتغ(٢٠) الا نفسه وأهل بيته ، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ، وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف ، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف ، وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف ، وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف ، وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته ، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وأن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وأن البر دون الاثم(٢١) ، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد ، وأنه لا ينحجز على ثار جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته الا من ظلم ، وأن الله على أبر هذا ، وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة(٢٢) وأن الجار كالنفس غير مضار ، ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة الا باذن أهلها .

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار(٢٣) يخاف فساده ، فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد رسول الله ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قريش

---

(٢٠) يوتغ : يهلك .
(٢١) اى أن البر يجب أن يسود الناس حتى يحول بينهم وبين الاثم والشر .
(٢٢) اى أن عليهم ألا ينتهكوا حرمة يثرب .
(٢٣) الاشتجار : الخلاف والنزاع .

ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم[٢٤] يثرب ، واذا دعــوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم اذا دعــوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهــل هــذه الصحيفة ، مع البر الحسن من أهــل هــذه الصحيفة ، وأن البر دون الاثم ، لا يكسب كاسب الا على نفسه ، وأن الله على أصــدق ما فى هــذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحــول هــذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعــد آمن بالمدينة ، الا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله » .

(٢٤) دهم : هاجم واقتحم .

(٢)

كتابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المنذر بن ساوى ملك البحرين[٢٥]

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى : سلم أنت[٢٦] ، فانى أحمدُ اليك الله الذى لا اله الا هو ، أما بعد : فان من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم ، له ذمة الله وذمة رسوله ، فمن أحب ذلك من المجوس ، فانه آمن" ، ومن أبى فانه عليه الجزية » •

(٣)

رد المنذر على الكتاب[٢٧]

« أما بعد يا رسول الله : فانى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث لى فى ذلك أمرك »[٢٨] •

---

(٢٥) صبح الأعشى ٦/٣٧٦ وفتوح البلدان ٩١ .

(٢٦) اى انت ذو سلام . أو ادعو لك أن تعيش فى سلام .

(٢٧) جمهرة رسائل العرب ٤٦ . ورد النبى على هذا الرد نفس المرجع والصفحة .

(٢٨) أى مرنى بما تراه فى هذا الشأن .

(٤)

رده ـ صلى الله عليـه وسلم ـ على رد المنذر

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى ٠ سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ٠ أما بعـد : فانى أذكرك الله عز وجل ، فانه من ينصح فانمـا ينصحُ لنفسه ، وانه من يطـع رسلى ويتبع أمرهم فقـد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وان رسلى قـد أثنوا عليك خـيرا ، وانا قـد شـفعتك فى قـومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفـوتُ عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهوديته ، أو مجوسيته فعليـه الجزية » ٠

(٥)

كتاب خالد بن الوليد الى النبى صلى الله عليه وسلم[٢٩]

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد النبى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من خالد ابن الوليد : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فانى أحمد اليك لله الذى لا اله الا هـو ٠

أما بعـد يا رسول الله : صلى الله عليك ، فانك بعثتنى الى بنى الحارث بن كعب ، وأمرتنى اذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم الى الاســلام ، فان أسلموا أقمت فيهم ، وقبلت منهم ، وعلمتهم معالم الاسلام وكتاب الله وســنة نبيه وان لم يسلموا قاتلتهم ، وانى

---

(٢٩) صبح الأعشى ٤٦٥/٦ ٠

قــدمتُ عليهم فــدعوتهم الى الاسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رســول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركبانا قالوا : يا بنى الحارث أسلموا تسلموا[30] ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، آمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الاسلام ، وسنة النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى يكتب الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركـــاته » .

(٦)

كتابه صلى الله عليه وسلم الى معاذ بن جبل[31] يعزيه فى ابن فقــده

« من محمد رسول الله الى معاذ بن جبل :

سلام عليك ، فانى أحمدُ اليك الله الذى لا اله الا هــو ، أما بعد فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ، ورزقنــا وإياك الشكر ، ثم ان أنفسنا وأهلينا وموالينا[32] من مواهب[33] الله السنية ، وعــوارفه المستودعة[34] ، نمتع بها الى أجل معــدود ، وتقبض لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر اذا أعطى ، والصبر اذا ابتلى .

وكان ابنك من مواهب الله الهنية ، وعــوارفه المستودعة ، متعك به فى غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير : الصلاة والرحمة والهدى ،

(٣٠) أى اعتنقوا الاسلام حتى تضمنوا السلامة فى الدنيا والآخرة .

(٣١) صبح الأعشى ٩/٨٠ .

(٣٢) المولى هــو السيد والنصير والعبد .

(٣٣) المواهب : العطــايا .

(٣٤) العوارف جمع عارفة وهى المعروف . المستودعة : التى هى فى حكم الوديعة ومن حــق صاحبها أن يستردها .

ان صبرت واحتسبت ، فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين[٣٥] أن يحبط جزعــك[٣٦] صــبرك ، فتندم على ما فاتك ، فلــو قــدمت على ثواب مصيبتك ، قــد أطعت ربك ، وتنجزت موعوده ، عرفت أن المصيبة قــد قصرت عنه ، وأعلم أن الجزع لا يرد ميتا ، ولا يدفــع حزنا ، فأحسن الجزاء وتنجز الموعود ، وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكان قد »[٣٧] •

(٧)

كتاب أبى سفيان
الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الخندق[٣٨]

باسمك اللهم : فانى أحلف باللات والعزى ، لقــد سرتُ اليك فى جمعنا ، وانا نريد ألا نعــود أبدا حتى نستأصلكم[٣٩] ، فرأيتك قــد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق[٤٠] وخنادق ، فليت شــعرى[٤١] من علمك هــذا فان نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم احــد[٤٢] •

---

(٣٥) الخصلة : الصفة . ويقصد بالخصلتين : اى فقــد الولد وفقــد الثواب بعــدم الصبر .

(٣٦) يحبط : يبطل ويفسد ، والجزع : الخوف والفزع .

(٣٧) فكأن قــد : اى كان قــد نزل بك الموت .

(٣٨) امتاع الأسماع ٢٣٩ . وقــد كتبه أبو سفيان وبعث به مع ابى اسامة الجشمى ، فقرأه أبى بن كعب على رسول الله ـــ صلى الله عليــه وسلم ـــ فى قبته ، وكتب له الرد عليه .

(٣٩) نستأصلكم : نقضى عيكم قضاء مبرما ، فلا يبقى لكم بقية .

(٤٠) مضايق : جمع مضيق . وهو المكان الضيق يصعب المرور منه .

(٤١) ليت شعرى : ليتنى أشعر وأعرف .

(٤٢) كانت قريش تعــد معركة أحــد من مفاخرها ، يقول أبو سفيان ـــ من رواية أخرى لكتابه هــذا « ثم غزوتك فى جمعنا يوم احــد ، فكانت وقعتنا فيكم مثل وقعتكم بنا ببدر » السابق ٢٤٠ .

(٨)

رد النبى – عليه السلام – على أبى سفيان[٤٣]

من محمد رسول الله الى أبى سفيان بن حرب • أما بعد ، فقديما غرك بالله الغرور[٤٤] • أما ما ذكرت – أنك سرت الينا فى جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا – فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى •

وأما قولك : من علمك الذى صنعنا من الخندق فان الله ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح[٤٥] ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى واسلف ونائلة وهبل[٤٦] ، حتى أذكرك ذلك •

---

(٤٣) امتاع الأسماع ٢٣٩ .

(٤٤) الغرور : الشيطان .

(٤٥) الراح : جمع راحة وهى الكف .

(٤٦) أسماء أصنام كان العرب يعبدونها .

(٩)

كتاب مسيلمة بن حبيب
الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٤٧]

« من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله :

سلام عليك ، أما بعـــد فانى قـــد أشركت فى الأمر معك ، وان لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون » •

(١٠)

رده صلى الله عليه وسلم على مسليمة

« بسم الله الرحمن الرحيم • من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب • سلام على من اتبع الهـــدى ، أما بعـــد ، فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » •

(٤٧) سيرة ابن هشام ١٦٨/٤ . والبلاذرى : فتـــوح البلـــدان ٩٧ مـــع خـــلاف ضئيل .

وكان مسيلمة قـــد جاء مع وفـــد بنى حنيفة الى المدينة ، واخـــذ يقول « لو جعل لى محمد الأمر من بعـــده تبعته » فأشار النبى ـــ عليه السلام ـــ الى قطعة جريدة معه وقال « لو سألتنى هـــذه القطعة ما اعطيتكها ، ولن أتعـــدى أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله » مسلم ١٣٢/٥ ـــ كتاب الرؤيـــا .

المراجـــع

١ ــ **القرآن الكريم .**

٢ ــ **أحكام القانون الدولى فى الشريعة الاسلامية ــ د. حامد سلطان .**
دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٧٠ .

٣ ــ **احياء علوم الدين ــ الغزالى : حجة الاسلام أبو حامد .**
دار الشعب ــ القاهرة (د.ت) .

٤ ــ **أدب الحــديث النبوى ــ د. بكرى شيخ أمين .**
ط ٥ . دار الشروق . القاهرة ١٩٨١ .

٥ ــ **أدب الخلفاء الراشــدين ــ د. جابر قميحة .**
دار الكتاب المصرى ــ اللبنانى . القاهرة ١٩٨٥ .

٦ ــ **أساس البلاغة ــ الزمخشرى : أبو القاسم محمود بن عمر بن الأثير**
دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٢ .

٧ ــ **أسباب النزول ــ السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر .**
مطابع شركة الاعلانات الشرقية . القاهرة ١٩٦٣ .

٨ ــ **أسد الغابة فى معرفة الصحابة ــ ابن الأثير : عز الدين .**
دار الشعب . القاهرة (د.ت) .

٩ ــ **أسرار البلاغة ــ عبد القاهر الجرجانى .**
دار المنار ــ القاهرة ١٩٧٢ .

١٠ ــ **اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ــ مصطفى صادق الرافعى .**
ط ٤ . مطبعة القاهرة ــ القاهرة ١٩٤٥ .

١١ ـ الأغانى ـ الأصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين ـ تحقيق وشرح ابراهيم الابيـــارى .
دار الشعب ـ القاهرة (د.ت) .

١٢ ـ امتاع الأسماع ـ المقريزى : تقى الدين أحمد بن على ـ تحقيق الشيخ محمود شاكر .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤١ .

١٣ ـ البيان والتبين ـ الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر .
ط ٢ ـ دمشق ١٩٦٣ .

١٤ ـ تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام ـ المجلد الأول المغازى ـ الذهبى : أبو عبد الله شمش الدين محمد بن أحمد بن عثمان ـ تحقيق : محمد محمود حمدان .
ط ١ . دار الكتاب المصرى ـ اللبنانى ـ القاهرة ١٩٨٥ .

١٥ ـ تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى) ـ الطبرى : محمد بن جرير ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم .
دار المعارف ـ القاهرة (د.ت) .

١٦ ـ تاج العروس من جواهر القاموس ـ الزبيدى : محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى .
المطبعة الخيرية ـ القاهرة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) .

١٧ ـ تراث الاسلام (قسم ٣) ـ شاخت وبوزورث ـ ترجمه د. حسين مؤنس . د. احسان صـــدقى .
الكويت ١٩٧٨ .

١٨ ـ التشريع والفقه فى الاسلام تاريخا ومنهجا ـ مناع القطان .
ط ١ ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ١٩٧٦

١٩ ـ تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى ـ أنيس المقـدسى .
ط ٥ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٤ .

٢٠ ـ تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار) ـ الامام : محمد عبده .
ط ٣ ـ دار المنار ـ القاهرة ١٩٦٧ .

٢١ ـ تنازع القوانين ـ د. جابر جاد عبد الرحمن .
دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٢ .

٢٢ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبى : ابو عبد الله محمد بن احمـد الانصـــارى .
دار الشعب ـ القاهرة (د.ت) .

٢٣ ـ جمرة خطب العرب ـ أحمد زكى صفوت .
ط ٢ ـ مصطفى الحلبى ١٩٦٢ .

٢٤ ـ جمهرة رسائل العرب ـ أحمد زكى صفوت .
ط ٢ ـ مصطفى الحلبى ـ القاهرة ١٩٦٢ .

٢٥ ـ الحكومة الاسلامية ـ أبو الأعلى المودورى ـ ترجمة احمد ادريس .
ط ٢ ـ المختار الاسلامى ـ القاهرة ١٩٨٠ .

٢٦ ـ الحكومة الاسلامية ـ د. محمد حسين هيكل .
دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٧ .

٢٧ ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلى ـ د.أحمد الحوفى .
ط ٢ ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٥٢ .

٢٨ ـ حياة محمد ـ د. حسين هيكل .
ط ١٣ ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٥ .

٢٩ ــ **الرسائل الفنية فى العصر الاسلامى حتى نهاية العصر الأموى ــ غانم جــوار رضا .**
مطبعة اســعد ــ بغــداد (د.ت) .

٣٠ ــ **الرسول حياة محمد ــ ر.ف. بودلى ــ ترجمة محمد محمد فرج ــ د. عبد الحميد السحار .**
ط ٢ ــ مكتبة مصر ــ القاهرة (د.ت) .

٣١ ــ **روائع الأدب فى عصور العربية الزاهرة جـ ١ (عصر الراشــــدين وبنى أمية) ــ د. محمد نبيه حجاب .**
ط ١ ــ دار المعارف بالقاهرة .

٣٢ ــ **زاد المعاد فى هــدى خير العباد ــ ابن القيم الجوزى الامام الحافظ أبو عبد الله .**
مكتبة صبح ــ القاهرة (د.ت) .

٣٣ ــ **السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ــ ابن تيمية أبو العباس تقى الدين أحمد بن تيمية .**
ط ٤ ــ دار الكتاب العربى ــ القاهرة .

٣٤ ــ **السيرة النبوية ــ ابن هشام : أبو محمد بن عبد الملك .**
المكتبة التوفيقية ــ القاهرة (د.ت) .

٣٥ ــ **شرح القصائد العشر ــ التبريزى الخطيب ابو زكريا يحيى بن على .**
المطبعة المنيرية ــ القاهرة ١٣٦٩ هـ .

٣٦ ــ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى ــ القاضى عياض بن موسى اليحصبى**
مكتبة دار التراث ــ القاهرة ــ عن طبعة المطبعة العثمانية ١٣١٢ ــ القــــاهرة .

٣٧ ــ **صبح الأعشى فى صناعة الانشا ــ القلقشندى : أبو العباس أحمد بن علی ٠**
المؤسسة المصرية العامة ــ القاهرة ١٩٦٣ ٠

٣٨ ــ **صحيح البخارى ــ الامام البخارى : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ابن ابراهيم ٠**
دار الشعب ــ القاهرة (د.ت) ٠

٣٩ ــ **صحيح مسلم ــ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى ٠**
دار الشعب ــ القاهرة (د.ت) ٠

٤٠ ــ **الطبقات الكبرى ــ محمد بن ســعد ٠**
دار صادر ــ بيروت ١٩٥٧ ٠

٤١ ــ **عبقرية محمد ــ عباس محمود العقاد ٠**
دار نهضة مصر للطبع والنشر ــ القاهرة ١٩٧٧ ٠

٤٢ ــ **العسكرية العربية لاسلامية ــ محمود شيت خطاب ٠**
ط ١ ــ قطر ١٤٠٣ ٠

٤٣ ــ **العقــد الفريد ــ ابن عبد ربه الأندلسى أبو عمر أحمد بن محمد ٠**
نجنة التأليف والترجمة وانشر ــ القاهرة ١٩٤٠ ٠

٤٤ ــ **فتوح البلدان ــ الامام البلاذرى أبو الحسن ــ راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان ٠**
دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ١٩٧٨ ٠

٤٥ ــ **فجر الاسلام ــ أحمد أمين ٠**
ط ٧ ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ٠

٤٦ ــ **فقة السيرة ــ محمد الغزالى ٠**
ط ١ ــ دار الكتاب العربى ــ القاهرة ١٩٥٣ ٠

٤٧ ـ **الفن ومذاهبه فى النثر العربى ـ د. شوقى ضيف .**
ط ٩ ـ دار المعارف ١٩٨٠ .

٤٨ ـ **فى ظلال القرآن ـ سيد قطب .**
دار الشروق ـ القاهرة ١٩٧٨ .

٤٩ ـ **القانون الدولى العام فى وقت السلم ـ د. حامد سلطان .**
ط ٣ ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٨ .

٥٠ ـ **القضايا الكبرى فى الاسلام ـ عبد المتعال الصعيدى .**
مكتبة درب الجماميز ـ القاهرة (د.ت) .

٥١ ـ **الكامل فى التاريخ ـ عز الدين بن الاثير .**
دار صادر ـ بيروت ١٩٧٩ .

٥٢ ـ **كتاب الصناعتين ـ أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى .**
دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٢ .

٥٣ ـ **كتاب الوزراء والكتاب ـ الجهشيارى : أبو عبد الله محمد بن عبدوس تحقيق مصحفى السقا وآخرين .**
ط ٢ ـ مصطفى البابى الحلبى ١٩٨٠ .

٥٤ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل ـ الزمخشرى : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر .**
دار الفكر ـ بيروت ـ القاهرة .

٥٥ ـ **لسان العرب ـ ابن منظور المصرى .**
دار المعارف بالقاهرة (د.ت) .

٥٦ ـ **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ـ د. محمد حميد الله .**
ط ٣ ـ دار الارشاد ـ بيروت .

٥٧ ــ **مختار الصحاح ــ محمد بن أبى بكر الرازى .**
المطبعة الأميرية ــ القاهرة ١٩٢٢ .

٥٨ ــ **مختصر تفسير ابن كثير ــ للامام ابن كثير : عماد الدين ابى الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقى ــ اختصار وتحقيق محمد على الصابونى .**
ط ٧ ــ بيروت ١٩٨٢ .

٥٩ ــ **المدخل الى القيم الاسلامية ــ د. جابر قميحة .**
دار الكتاب المصرى ــ اللبنانى ــ القاهرة ١٩٨٤ .

٦٠ ــ **المشروعية الاسلامية العليا ــ د. على جريشة .**
ط ١ ــ مكتبة وهبة ــ القاهرة ١٩٧٦ .

٦١ ــ **المعاهدات والمهادنات فى تاريخ العرب ــ محمد عبد الغنى حسن .**
الدار المصرية للتأليف والترجمة ــ القاهرة ١٩٦٦ .

٦٢ ــ **موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية : الكتاب الأول السيرة النبوية العطرة ــ د. احمد شلبى .**
ط ١ ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ١٩٨١ .

٦٣ ــ **نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (دراسة فى وثائق العهد النبوى) د. عون الشريف قاسم .**
ط ٢ ــ دار الكتاب المصرى اللبنانى ــ القاهرة ١٩٨١ .

٦٤ ــ **النظام الدستورى العربى ــ د. ثروت بدوى .**
دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٦٤ .

٦٥ ــ **نظرية الحق ــ عبد الحى حجازى .**
ط ٢ ــ دار الكتاب العربى ــ القاهرة ١٩٥١ ــ ١٩٥٢ .

٦٦ ـ **نشاة الكتابة الفنية فى الأدب العربى ـ د. حسين نصار .**
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٤ .

٦٧ ـ **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ـ الشيخ عبد الحى الكتانى .**
بيروت (د.ت) .

٦٨ ـ **النظريات السياسية الاسلامية ـ د. محمد ضياء الدين الريس .**
ط ٧ ـ مكتبة دار التراث ـ القاهرة ١٩٧٩ .

٦٩ ـ **نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ النويرى شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب .**
دار الكتب المصرية ١٩٥٤ .

كتب للمؤلف

١ — **منهج العقاد فى التراجم الأدبية**
دار النهضة المصرية القاهرة

٢ — **المدخل الى القيم الاسلامية**
دار الكتاب المصرى — اللبنانى — القاهرة

٣ — **أدب الخلفــاء الراشــدين**
دار الكتاب المصرى — اللبنانى — القاهرة

٤ — **التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى**
توزيع دار المعارف — القاهرة

٥ — **فى صــحبة المصطفى**
دار الكتاب المصرى — اللبنانى — القاهرة

٦ — **الشاعر الفلسطينى الشهيد : عبد الرحيم محمود**
أو : ملحمة الكلمة والدم
دار الفكر العربى بالقاهرة

يصــدر قريبــا للمؤلف

أدب الرســائل فى صــدر الاسلام

الجزء الثانى : عهد الخلافة الراشدة

محتويات الكتاب

النبى الأمى : امية النبى وأمية العرب . كتـــاب الرسول : الكتـــاب المباشرون . كتاب الدولة .

هل كتب الرسول فى حياته ؟ . ما حـــدث فى الحـــديبية هـــو سبب الخــلاف . آراء ثلاثة فى هــذه المسألة . نقـــدنا لهـــذه الآراء . اضطراب الروايات فى مسألة المحو والاثبات . النبى لم يكتب شيئا يوم الحـــديبية . بصمات الشيعة فى رواية المحو والاثبات . بين الحـــديبية سنة ٦ هـ وعهد التصالح بين على ومعاوية سنة ٣٧ هـ .

وكتابة على جبل سلع : أسماء محمد وأبى بكر وعلى مكتوبة على الجبل حفرا . د. حميد الله لا يستبعد صحة نسبة الكتابة اليهم . نقض هـــذا الرأى .

الفصـــل الثانى

البـــواعث والدوافـــع

(٣٣ ـ ٥٢)

فى مكة : سنوات الاعـــداد . ثلاثة عشر عاما من الدعوة الى الله . الدعوة من السرية الى الجهرية . هجرتان الى الحبشة . ميل الدكتور هيكل الى أن وراء الهجرتين هـــدفا سياسيا . ما فى هـــذا الرأى من اسراف . رواية ابن اسحق تنقض « تسييس » هجرتى الحبشة . آثار غـــير مباشرة لهـــاتين الهجرتين .

الهجرة الى المدينة أو الطريق الى الدولة : ملامـــح التشريع المكى . لقاءات ثلاثة مع الأنصار قبل الهجرة . أهم ما يميز العهد المكى .

فى المدينة : دولة الاسلام : الهجرة الى الحبشة والهجرة الى المدينة والفرق بينهما . من الصعب الى الأصعب . ومن الأرض الرافضة الى الأرض القـــابلة .

دولة المدينة وطبيعتها . بعض الحكومات فى الجزيرة العربية فى الجاهلية . لا دولة عربية مركزية . دولة المدينة فى ضوء القواعد القانونية قديما وحديثا . اركان « الدولة العصرية » توفرت لدولة المدينة .

البواعث والدوافع : نشوء مجموعة من العلاقات الجديدة . **المراحل التى مرت بها العلاقة بين مكة والمدينة** . علاقة بين مجتمعين . علاقة بين مجتمع ودولة « غير مشروعة » . علاقة بين مجتمع ودولة شرعية . علاقة الدولة باليهود . علاقة الدولة بالمنافقين . **ركيزتان فى تكييف هذه العلاقات** : ركيزة الحكمة والموعظة الحسنة . ركيزة استخدام القوة . نشوء الدولة وظهور هذه العلاقات وراء الرسائل والكتب . الدافع السياسى . دافع الحرب النفسية . كتب التجسس . دافع السلام . دافع نشر الدعوة . دواعث نفسية أخرى .

الفصل الثالث

الموضوعات والمضامين

(٥٣ ــ ١٠٨)

١ ــ المعاهدات وكتب الصلح : بين المسلمين واليهود . طبيعة العلاقات السابقة فى مجتمع المدينة . قوام المجتمع الجديد بعد الهجرة . سلام لا مواجهة . تعليل ذلك . **المبادىء السياسية والقيم الاجتماعية فى معاهدة الموادعة** . التقاء هذه المبادىء فى الحرص على اقرار السلام والتكامل والاستقرار .

سمات موضوعية فى العهد : الشمولية . عمومية النص . مراعاة الواقع الاجتماعى والتاريخى . دقة الصياغة . هل يعتبر الكتاب من نوع « الدستور المنحة » ؟ الرد على هذه الشبهة .

بين النبى وكفار مكة (صلح الحديبية) . بين كتابين . نص

الصلح . المبادىء التى قررها . موقف المسلمين من الصلح . عبقرية الرسول وبعـد نظره . **كتب الأمان : مفهومها وانواعها .**

٢ ــ **كتب الدعوة الى الاسلام** . لمـاذا العام السادس للهجرة ؟ . **الرسل المبعوثون الى الملوك والأمراء . مضامين هـذه الكتب . وجـوه** اتفاق . وجـوه اختلاف . تأثير هـذه الكتب .

٣ ــ **الرسائل والكتب التشريعية** : مفهومها ومجالاتها . نوعان من هذه الكتب . كتاب النبى فى الصدقات أو فى الكتب التشريعية المتخصصة .

٤ ــ **كتب الاقطاع والغنائم** : مفهومها . البواعث والدوافع الى كتابة هـذه الكتب : الكرم . تاليف القلوب . الفقر والعوز . التعمير . الفىء والغنائم . تشكيك حميد الله فى هـذا النوع من الكتب . معياران احتـكم اليهما فى التشكيك . رأينا فيما ذهب اليه .

حالات أخرى من اقطاع النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

كتب الغنائم . مفهومها نموذج منها . بينها وبين كتب الاقطاع .

٥ ــ **الكتب الادارية والتنظيمية** : مفهومها ومجالاتها . كتب التولية والتنصيب . كتب التكليفـات بمهـام محـددة . كتب تنظيمية تنص على عقوبات للمخالف . بين هـذا النوع من الكتب والكتب التشريعية .

٦ ــ **كتب التجسس والاستطلاع** : مفهوم هـذه الكتب ومدى الاحتياج اليها . دور العباس بن عبد المطلب فى مكة . كتاب حاطب بن أبى بلتعـة الى المشركين فى مكة . موقف النبى والمسلمين مما فعل حاطب . موقف الشريعة والقانون من هـذا الفعل . ندرة هـذا النوع من الكتب .

٧ ــ **الكتب الشخصية او الخاصة** . مفهومها . هـل يمكن أن تكون بين شخصايت عامة ؟ . العبرة فى راينا بالموضوع لا الأطراف . **رسـالة النبى الى معاذ يعزيه فى ابنه** . تشكيك بعضهم فى صحة نسبة هذه الرسالة الى النبى . ردنا على هـذا التشكيك .

٨ — **الكتب الجوابية** : مفهوم هـــذه الكتب . نماذج منها . كتب الردود على الردود .

٩ — **كتب الآخرين** : كثرة كتب النبى وقلة كتب الآخرين . تعليل ذلك . كتب الآخرين نوعان : كتب جوابية . كتب انشائية . كتاب خالد بن الوليد . كتاب مسيلمة الكذاب . عهد العلاء بن الحضرمى لأهل البحرين . ردود بعض الأمراء والحكام على الرسول صلى الله عليه وسلم .

الفصــل الرابع

الملامح والسمات الفنية

(١٠٩ — ١٥١)

الفصاحة النبوية : مصادرها وطبيعتها : المصدر القرآنى . المصدر البيئى . المصدر الذاتى . قمة البلاغة البشرية . الجاحظ وبيان الرسول .

منهج الرسالة النبوية : ١ — الافتتـــاح بالبسملة ٢ — ذكر طـــرفى الكتاب ٣ — التحية بالسلام ٤ — أما بعـــد ٥ — ختام الرسالة .

الضمون بين الرسالة والخطبة . فروق بين النوعين . تعليل هـــذه الفـــروق .

بين الاطناب والايجاز . خطأ من يفاضل بينهما . لكل منهما مقامه . غلبة الايجاز على رسائل النبى — عليه السلام — تعليل ذلك .

التقابل والتضاد . مفهومه وأثره . أمثلة له فى رسائل النبى — عليـــه الســـــلام .

السهولة والوضوح . الآثار السيئة للتعقيد . أسلوب النبى أسلوب عصرى . تعليل ما فى بعض رسائله من غريب حوشى . مراعاته مقتضى الحال . جانبان لهـــذه المراعاة .

التدفق والترسل : مفهوم هـــذه السمة . لمـــاذا كره السجع ؟ . اختلاف النقـــاد فى ذلك . رأينا فى هـــذه المسألة . سجع النبى وتقييمه . كتاب موضوع على النبى . ادلتنا على الوضع .

الشواهد القرآنية والأســـلوب النبوى . ركـــائز النبى فى الاستشهاد بالقرآن : طبيعة المرسل اليه وطبيعة السياق والموضوع . امثلة متنـــوعة **طرق استشهاده بالقرآن** . الاستشهاد بالآية أو بعضها بالنص . الاستشهاد بالآية مع تغيير طفيف . كلمات قرآنية فى تضاعيف الرسائل .

بين التقرير والتصوير : ارتباط طبيعة الأسلوب بطبيعة الموضوع . كتب ذات أســـلوب علمى بحت . العنصر الفـــكرى هـــو أهم العناصر . **العنصر التصويرى فى الرسائل** . نماذج من الصور .

بين الشك واليقين : ضرورة فحص الرسائل داخليا للحكم بصحتها أو وضعها . مثال لرسالة موضوعة . عود الى معيارى حميد الله . كتب موضوعة بلا شك . أدلتنا على الوضـــع . **شك المقـــدسى فى كتب النبى الى الملوك** . ردنا على ما ذهب اليه . أغلب كتب النبى عليه السلام صحيح .

مختارات من الكتب والرسائل
(١٥٣ ـــ ١٦٥)

١ ـــ كتاب رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بين المسلمين والأنصار واليهود بالمدينة .

٢ ـــ كتابه للمنذر بن ساوى ملك البحرين .

٣ ـــ رد المنذر على الكتاب .

٤ ـــ رده ـــ عليه السلام ـــ على رد المنذر .

٥ ـــ كتاب خالد الى النبى ـــ صلى الله عليه وسلم .

رقم الايداع : ٨٦/٤٧٣٣

الترقيم الدولى : X — ٠٢٨٥ — ١٠ — ٩٧٧

شركة دار الاشـــعاع للطباعة
١٤ شارع عبد الحميد — جنينة قاميش
السيدة زينب ت : ٣٦٣٠٤٦٩